مقدمة في

علم الأخلاق

السيد كمال الحيدري

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مقدمة في علم الأخلاق

السيد كمال الحيدري

التنضيد والإخراج الفنّي:	افتخاري
منشورات:	دار فراقد
الطبعة الثانية:	١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م
المطبعة:	ستاره
الكمية:	٥٠٠٠ نسخة

دار فراقد للطباعة والنشر

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ

وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك . . .

آل عمران: ١٥٩

تمهيد:

أهميّة العنصر الأخلاقي في القرآن

اهتمّ القرآن الكريم بمكارم الأخلاق وذمّ مساوئها في آياته المتكرّرة وسوره المتتالية بحيث بلغت مجموع الآيات التي تحدّثت عن الأخلاق صراحة أو إشارة، أمراً أو نهياً، ما يقرب من ربع العدد الإجمالي لآيات القرآن الكريم.

ولعلّ السرّ في عناية القرآن الكريم بهذا الأصل، هو ما ذكره في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

«قال الواحدي: الفظّ: الغليظ الجانب السيّئ الخُلُق، وأصله فظظ. وأمّا الفضّ بالضاد فهو تفريق الشيء، وانفضّ القوم تفرّقوا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[2]، ومنه فضضت الكتاب، ومنه

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الجمعة: ١١.

يقال: لا يفضض الله فاك.

فإن قيل: ما الفرق بين الفظّ وبين غليظ القلب؟

قلنا: الفظّ الذي يكون سيّئ الخُلُق، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثّر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الإنسان سيّئ الخُلُق ولا يؤذي أحداً، ولكنّه لا يرقّ لهم ولا يرحمهم، فظهر الفرق من هذا الوجه.

أمّا ما هي العلاقة بين الفظّ الغليظ القلب وبين التفرّق وعدم الاجتماع حوله صلى الله عليه وآله فقد أُجيب عنه: «أنّ المقصود من البعثة أن يبلّغ الرسول تكاليف الله إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتمّ إلاّ إذا مالت قلوبهم إليه، وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتمّ إلاّ إذا كان رحيماً كريماً، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصّهم بوجوه البرّ والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأً عن سوء الخُلُق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير الصفح عن زلاّتهم، فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو انفضّوا من حوله فات المقصود من البعثة والرسالة»[1] لذا أمره تعالى في ذيل الآية بأن يعفو عنهم فيما يختصّ بحقّه صلى الله عليه وآله وأن يستغفر لهم فيما

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: للإمام فخر الدين الرازي الشافعي: ج٩ ص٥٢، منشورات: محمّد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

يتعلّق بحقّ الله تعالى، كما ذكره الزمخشري في الكشّاف[١].

والآية دالّة على وجوب العفو عنهم؛ لقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُم﴾ ولكن لمّا آل الأمر إلى الأمّة لم يوجبه عليهم، بل ندبهم إليه، فقال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٢] ليعلم أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وكيفما كان فهذه الآية المباركة تدلّ دلالة واضحة أنّ من أهمّ قواعد وأُصول تبليغ هذا الدين القيّم، هو التحلّي بهذا الخُلُق الإلهي الرفيع، لأنّ الناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمّه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والودّ والرضاء....

وهكذا كان قلب رسول الله، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قطّ، ولا ضاق صدره لضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كلّ ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبرّه وعطفه وودّه الكريم.

---

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** وهو تفسير القرآن الكريم للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المتوفّى سنة ٥٢٨ هـ ج١ ص٤٣١.

(٢) آل عمران : ١٣٤.

وإنَّك لعَلى خُلق عَظيم

من هنا يتّضح أهميّة ما أثنى به القرآن الكريم على سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾[١].

«والخلق العظيم: هو الخُلُق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشدّ الكمال المحمود في طبع الإنسان... فهو أرفع من مطلق الخُلُق الحسن»[٢].

قال الرازي: «إنّما وصف خلقه بأنّه عظيم وذلك لأنّه تعالى قال له: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾[٣].

وهذا الهدى الذي أمر الله محمّداً بالاقتداء به، ليس هو معرفة الله، لأنّ ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأنّ شريعته مخالفة لشرائعهم، فتعيّن أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكلّ واحد من الأنبياء المتقدّمين، فيما اختصّ به من الخُلُق الكريم، فكأنّ كلّ واحد منهم كان مختصّاً بنوع واحد، فلمّا أُمر محمّد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكلّ فكأنّه أمر بمجموع ما كان

(١) القلم: ٤.

(٢) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**، تأليف: سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور: ج٢٩ ص٦٠ مؤسّسة التاريخ، الطبعة الأولى.

(٣) الأنعام: ٩٠.

متفرّقاً فيهم، ولمّا كان ذلك درجة عالية لم تتيسّر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنّه عظيم، وفيه دقيقة أُخرى وهي قوله ﴿لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾ وكلمة «على» للاستعلاء، فدلّ اللفظ على أنّه مستعلٍ على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنّه بالنسبة إلى هذه الأخلاقِ الجميلة كالمولى بالنسبة إلَى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»[١].

وقد تكرّر مثل هذا الأسلوب الاستعلائي في كلامه سبحانه في مقامات مختلفة، حيث قال في حقّه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيم﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم﴾[٤].

لذا قيل في وصف خلقه صلى الله عليه وآله: «ويعجز كلّ قلم، ويعجز كلّ تصوّر عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربّ الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾ ومدلول الخُلق العظيم، هو ما هو عند الله ممّا لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمّد صلى الله عليه وآله

(١) **التفسير الكبير** أو مفاتيح الغيب: ج٢٩ ص٧١.
(٢) الحج: ٦٧.
(٣) النمل: ٧٩.
(٤) الزخرف: ٤٣.

تبرز من نواحٍ شتّى:

● تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال: يسجّلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردّد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

● وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمّد ﷺ لتلقّيها، وهو يعلم مَن ربّه هذا، قائل هذه الكلمة، ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته، ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين»[١].

ويمكن أن يذكر وجه آخر لبيان توصيف خُلقه صلى الله عليه وآله بأنّه عظيم، أنّه ورد عن عائشة أنّها سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: «إنّ خلقه كان القرآن»[٢]. ولمّا كان القرآن عظيماً كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[٣] يثبت أنّه صلى الله عليه وآله كان على خلق

(١) **في ظلال القرآن**، سيّد قطب: ج٨ ص٢٢٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة السابعة: ١٣٩١ هـ.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، برقم ٧٤٦ وأخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة الليل برقم ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل، والدارمي في الصلاة باب صفة صلاة رسول الله، وأحمد في المسند، وكذلك الحاكم في المستدرك ج٢ ص٤٩٩، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي والبيهقي في دلائل النبوّة، وغيرهم كثير. نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٦٣، الحاشية.

(٣) الحجر: ٨٧.

عظيم، كما أكّدت ذلك آية سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾ بمؤكّدات عديدة هي:

- وقوعه في جواب القسم.
- «إنّ» المؤكّدة.
- إبراز كاف الخطاب تشريفاً وتنويهاً بشأنه.
- اللام المؤكّدة التي هي في موضع القسم عوضاً عن المزحلقة.

وكيفما كان فإذا ضممنا إلى ذلك ما حثّ عليه القرآن من وجوب الاتّباع لهذا النبي العظيم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] واتّخاذه أُسوة وقدوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُول اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[2] يتّضح لنا أهميّة العنصر الأخلاقي في النظرية القرآنية وأصالته في العقيدة الإسلامية. لذا نجد أنّ هذا العنصر له دور أصيل في جميع ما أسّسه الشارع في أُصوله التشريعية والتهذيبية فإنّ «القوانين والسنن التي سنّها الشارع وإن كانت عادلة في حدود مفاهيمها، وأحكام الجزاء وإن كانت بالغة في شدّتها، لا تجري على رسلها في المجتمع، ولا تسدّ باب الخلاف وطريق التخلّف، إلاّ بأخلاق فاضلة إنسانية، تقطع دابر الظلم والفساد، كملكة اتباع الحقّ

(١) آل عمران: ٣١.
(٢) الأحزاب: ٢١.

واحترام الإنسانية والعدالة والكرامة والحياة ونشر الرحمة ونظائرها. وبالجملة السنن والقوانين لا تأمن التخلّف إلاّ إذا تأسّست على أخلاق كريمة إنسانية واستظهرت بها.

نعم الأخلاق بمفردها لا تفي بإسعاد المجتمع، ولا تسوق الإنسان إلى العمل الصالح، إلاّ إذا اعتمدت على التوحيد، وهو الإيمان بأنّ للعالم ومنه الإنسان ، إلهاً واحداً سرمدياً لا يعزب عن علمه شيء، ولا يُغلب في قدرته عن أحد، خلق الأشياء على أكمل نظام، لا لحاجة منه إليها، وسيعيدهم إليه فيحاسبهم، فيجزي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، ثمّ يخلدون منعّمين أو معذّبين»[١].

قد أفلحَ مَن زَكَّاهَا

وبهذا يتأسّس ما أكّده القرآن الكريم، من ضرورة التحلّي بالأخلاق الإلهية والتخلّي عن رذائل الأخلاق وذمائمها.

ولعلّ من أهمّ المشاهد القرآنية التي حثّت على الأخلاق الحسنة وحذّرت من الأخلاق السيئة ما جاء في أوّل سورة الشمس؛ قال تعالى:

﴿بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا *

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: ج١١ ص١٥٦، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية.

وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

هذه الآيات القصيرة «ذات القافية الواحدة، والإيقاع الموسيقي الموحّد، تتضمّن عدّة لمسات وجدانية، تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة، والتي تظهر كأنّها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمّنها السورة، حقيقة النفس الإنسانية، واستعداداتها الفطرية، ودور الإنسان في شأن نفسه، وتبعته في مصيرها، هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة.

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى، وأن يوجّه إليها القلوب تتملاّها، وتتدبّر ماذا لها من قيمة، وماذا بها من دلالة، حتّى استحقّت أن يقسم بها الجليل العظيم...

وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها.. بالشمس عامّة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصّة، وهي أروع ما تكون في هذه الفترة وأحلى.

وبالقمر إذا تلاها، إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي.

---

(١) الشمس: ١ ـ ٩.

ويقسم بالنهار إذا جلاّها، ممّا يوحي بأنّ المقصود بالضحى هو الفترة الخاصّة لا كلّ النهار. ومثله (والليل إذا يغشاها) والتغشية هي مقابل التجلية، والليل غشاء يضمّ كلّ شيء ويخفيه، وهو مشهد له في النفس وقع، وفي حياة الإنسان أثر كالنهار سواء.

ثمّ يقسم بالسماء وبنائها (والسماء وما بناها) ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبّة حيثما اتّجهنا، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها.

كذلك يقسم بالأرض وطحوها (والأرض وما طحاها) والطحو كالدحو: البسط والتمهيد للحياة، وهي حقيقة قائمة تتوقّف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحيّة.

ثمّ تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره، وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق»[1].

هذه إطلالة سريعة على مجمل مضمون هذه الآيات المباركة، إلاّ أنّ هناك مجموعة من النكات التي تستحقّ الوقوف عندها قليلاً:

الأولى: من النوادر القرآنية أن يقدّم لجواب القسم بعدد كبير من الأقسام، وقد قدّم لجواب القسم هنا، أي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ بسبعة أقسام، الأمر الذي يوضّح مدى

(١) **في ظلال القرآن**: ج٨ ص٥٨٧ ـ ٥٩٠.

اهتمام القرآن الكريم بجواب القسم هذا، والذي يتضمّن دعوة الإنسان إلى الالتزام بالأخلاق الحسنة، وتجنّب السيّئ منها، وحثّه إلى تزكية نفسه وتحذيره من دسّها.

الثانية: أقسم الله سبحانه في هذه الآيات الشريفة بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض، حتّى شمل كلّ عالم المادّة ـ هذا العالم المشهود ـ بقسمه عزّ وجلّ، ولم يبق فيه شيء إلاّ وأقسم به، وكأنّ هذه الآيات تريد أن تقول ـ والله العالم ـ إنّ كلّ عالم الشهادة هو لأجل خلق الإنسان، وإنّه هو المقصود من خلق هذه الأشياء كلّها.

قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

الثالثة: أنّ المراد من «النفس» في الآية المباركة هي النفس الإنسانية؛ بقرينة قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

(١) إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.
(٢) الجاثية: ١٣.

فليس المقصود هو مطلق النفس ولو كان نباتاً أو حيواناً، بل الإنسان وهو المكلّف الذي يترتّب على عمله الثواب والعقاب، ونفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلّفين بالإيمان والعمل الصالح: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

الرابعة: أنّ مفردات «الشمس» و «القمر» و «النهار» و «الليل» و «السماء» و «الأرض» في الآيات المتقدّمة كلّها معرفة، غير أنّ مفردة «نفس» نكرة، إذ قال تعالى: ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا﴾ ولم يقل «والنفس وما سوّاها».

ولبيان سبب التنكير، ذكرت عدّة وجوه، لعلّ أفضلها هو ما أشار إليه الطباطبائي في تفسيره، من أنّه جعل النفس نكرة لبيان عظمتها وفخامتها، فكأنّه سبحانه يقول: يا أيّها الإنسان اعرف نفسك، لأنّك وإن كنت تعرف كثيراً من الأشياء من حولك، ولكنّك لا تعرف أقرب الأشياء إليك وهي نفسك، واعلم أنّك بهذه النفس التي خلقتُها بيديَّ ﴿قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[٢] قد أصبحتَ سيّد عالم الإمكان ومحوره وثمرته، بشرط أن تقوم بما يجب عليك القيام به وأن تزكّي نفسك.

والخلاصة أنّ عالم الإمكان شجرة إلهية، والإنسان ثمرتها، وأنّ هذا العالم يدور حول محور الإنسان الكامل، وفي كلّ هذه المعاني –

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) ص: ٧٥.

وما سبقها – إشارة إلى عظمة النفس الإنسانية وفخامتها.

الخامسة: أنّ الآيات المباركة قد تسلسلت في طرح الأفكار، إذ ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا﴾ ومن بعده ورد قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إذ الظاهر أنّ هذه التسوية هي المنشأ لقبول النفس إلهام التقوى والفجور ، وإلاّ فإنّها بدون ذلك ليست قابلة لأيّ من الإلهامين. ولعلّ هذا هو المراد من التسوية في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾[1] بناءً على أنّ المراد من الخلق هو خصوص الإنسان، فيكون المراد من التسوية ما ذُكر هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

السادسة: أنّ القرآن الكريم حين حثّ الإنسان على تزكية النفس فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، زوّده بالمعدّات والوسائل التي يستطيع من خلالها تحقيق ذلك، فمن جهة زوّده بالحجّة الباطنة وهي العقل أو الفطرة الموجودة مع الإنسان منذ بداية خلقه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾[3] ثمّ بيّن له من خلال ذلك ما هو العمل الحسن وما هو العمل القبيح، كما ألهمه في فطرته ما هي التقوى وما هو الفجور.

---

(١) الأعلى: ٢.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) البقرة: ١٣٨.

قال في الميزان في ذيل قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: «وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها، للدلالة على أنّ المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى وفجور، وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأوّلي المشترك بين التقوى والفجور، كأكل المال مثلاً المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور، وبين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى... وبالجملة المراد أنّه تعالى عرّف الإنسان كون ما يأتي به من فعل فجوراً أو تقوى، وميّز له ما هو تقوى مما هو فجور»[١].

كما زوّده أيضاً بالحجّة الظاهرة، وهي الرسل والأنبياء والأئمّة والعلماء الصالحون، قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: «**يا هشام إنّ لله حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول**»[٢]. وقال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام: «**حجّة الله على العباد النبي، والحجّة بين العباد وبين الله العقل**»[٣].

كلّ ذلك من أجل أن تكون «الحجّة لله على الناس» لا «الحجّة للناس على الله» يوم القيامة، ولكي يقطع على الإنسان أي عذر له في

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٩٨.

(٢) **الأصول من الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، ج١ ص١٦، باب العقل والجهل، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٥، الحديث: ٢٢.

ذلك اليوم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٢].

السابعة: دلالة الآية أنّ الأخلاق الحسنة والتقوى منسجمة تمام الانسجام مع الفطرة الإنسانية، بخلاف الفجور فإنّه على خلاف طبيعتها وفطرتها. لعلّ «التعبير بالتزكية والتدسّي عن إصلاح النفس، وإفسادها، مبتنٍ على ما يدلّ عليه قوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على أنّ كمال النفس الإنسانية أنّها ملهمة مميّزة ـ بحسب فطرتها ـ للفجور من التقوى، أي أنّ الدين وهو الإسلام لله فيما يريده فطري للنفس، فتحلية النفس بالتقوى، تزكية وإنماء صالح وتزويد لها بما يمدّها في بقائها؛ قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[٣]، وأمرها في الفجور على خلاف التقوى، لأنّ التدسّي هو إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة التزكية، الإنماء على خلاف ما يقتضيها طبعها وركّبت عليه نفسها»[٤].

الثامنة: من أهمّ النكات التي تعرّضت لها الآية، أنّها قدّمت القسم بالمخلوق وهو النفس ﴿ونفس﴾ على القسم بالخالق ﴿وما سوّاها﴾ فإنّ

---

(١) الأنعام: ١٤٩.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٩٨.

الذي سوّى النفس هو الله سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[١].

ولعلّنا لا نجد مورداً آخر مشابهاً لهذه الآية في تقديم القسم بالمخلوق على القسم بالخالق، من هنا قد يُفهم منه ــ والله العالم ـ أنّ من أفضل الطرق لمعرفة الله سبحانه، يمرّ من خلال معرفة النفس، وهذا ما أكّدته الروايات الكثيرة الواردة عن النبي الأكرم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

والحاصل أنّ آيات هذا المقطع من سورة الشمس المباركة، أكّدت أهميّة الأخلاق والتقوى، بما لا نجده في آيات أُخرى من القرآن الكريم، حيث قرّرت أنّ هذا العالم، إنّما خلق لأجل الإنسان، وخلق الإنسان لأجل الأخلاق الإلهية والتخلّق بها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وبذلك يتسامى ويتكامل في مسيرته نحو الحقّ عزّ وجلّ ، حتّى يصل إلى مقام يكون فيه مظهراً لجميع الأسماء والصفات الإلهية، فيكون مؤهّلاً لحمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾[٢].

(١) الأعلى: ٢ ـ ٣.
(٢) الأحزاب: ٧٢.

الروايات الحاثّة على الأخلاق الحسنة

الروايات الصادرة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والتي تحثّ على الأخلاق الحسنة كثيرة جداً، نشير إلى بعضها:

● قصرت مجموعة من الروايات الواردة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هدف البعثة النبوية، على إتمام مكارم الأخلاق، من خلال ألسنة متعدّدة وبيانات مختلفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**» وفي رواية «**إنّما بعثت لأُتمّم صالح الأخلاق**» وفي ثالثة «**إنّ بعثتي بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال**» وفي رابعة «**بعثت لأُتمّم حسن الأخلاق**» وفي خامسة «**إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق**»[1].

وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في بيان فلسفة البعثة؛ قال تعالى:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تأليف: خاتمة المحدّثين الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفى سنة ١٣٢٠هـ: ج١١ ص١٨٧، برقم ١٢٧٠١، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث؛ **المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء** للمحقّق العظيم والمحدّث الكبير الحكيم المتألّه محمّد بن المرتضى المدعوّ بالمولى محسن الكاشاني: ج٥ ص٨٩ دفتر انتشارات إسلامي؛ **أخلاق النبي الأكرم في القرآن والسنّة**: ج١ ص٤٤، الحاشية٣ وص٤٥، الحاشية: ١- ٣.

(٢) البقرة: ١٥١.

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

فأخبر في هذه الآيات أنه بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ليزكّي عباده، قال الراغب الإصفهاني في «المفردات»: «أصل الزكاة النموّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأُمور الدنيوية والأُخروية، يقال: زكا الزرع يزكو، إذا حصل منه نموّ وبركة. وتزكية النفس تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً، فإنّ الخيرين موجودان فيها. وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحقّ في الدنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة. وينسب تارةً إلى العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وتارةً ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: ﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ وتارةً إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتارةً إلى العبادة التي هي آلة في ذلك نحو: ﴿وَحَنَاناً

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) الجمعة: ٢.

مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾[١].

وحيث إنّ الهدف العامّ من نزول القرآن الكريم هو إيصال الإنسان إلى الفلاح؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

ولا طريق للفلاح إلاّ بالتزكية؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

ولا طريق للتزكية إلاّ باتّباع تعاليم الإسلام المتجسّدة في اتّباع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

ولا يتحقّق هذا الاتّباع إلاّ بالأخذ بكلّ ما جاءنا عنه صلى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٤] وذلك لما جاء عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع

(١) **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهاني (٥٠٢هـ) : ص٢١٣، مادّة «زكا»، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.
(٢) البقرة: ٢ ـ ٥.
(٣) آل عمران: ٣٠.
(٤) الحشر: ٧.

فقال: «**أيّها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار، إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلاّ وقد نهيتكم عنه**»[١].

ثمّ حدّد صلى الله عليه وآله كيفية اتّباعه بقوله: «**إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[٢].

قال في «نفحات الأزهار»: «إنّ هذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وآله أكثر من ثلاثين صحابياً، وما لا يقلّ عن (٣٠٠) عالم من كبار علماء السنّة، في مختلف العلوم والفنون، في جميع الأعصار والقرون، بألفاظ مختلفة وأسانيد متعدّدة، وفيهم الصحاح والمسانيد وأئمّة الحديث والتفسير والتاريخ، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين»[٣].

فتحصّل أنّ الهدف الأساس من البعثة النبوية، هو التحلّي بمكارم الأخلاق، وهذا معناه أنّ الشريعة الخاتمة التي جاء بها سيّد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله ذات أُسس أخلاقية عليها تقوم، وبها

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٧٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى.
(٢) **سنن الترمذي**: ج٥ ص٦٦٤، الحديث: ٣٧٨٦.
(٣) **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار في الردّ على التحفة الاثني عشرية**، حديث الثقلين: ج١ ص١٨٥، تأليف السيّد علي الحسيني الميلاني.

تنفَّذ في كلّ جوانبها الإيمانية، والتعبّدية، والتعاملية، فلا يزكو إيمان ولا عبادة ولا عمل، ما لم يكن مصبوغاً بالصبغة الأخلاقية الفاضلة، إذ ليس من خُلق كريم ولا فعل جميل إلاّ وقد وصله الله بالدين»[١].

وبهذا يتّضح وجه ما ذكره ابن عباس في ذيل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾ «أي على دين كريم شريف»[٢] فسمّى الدين كلّه خُلقاً؛ لذا ورد أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: **حسن الخُلُق**، فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: **حسن الخُلُق**، ثمّ أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «**حسن الخُلُق**»[٣].

● وقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء، ولمّا خلق الله الإيمان قال: اللهمّ قوّني، فقوّاه بحسن الخلق والسخاء، ولمّا خلق الله الكفر، قال: اللهمّ قوّني، فقوّاه بالبخل وسوء الخلق**»[٤].

● وعنه صلى الله عليه وآله: «**أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخُلُق الحسن**»[٥].

---

(١) **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٤٦.

(٢) **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**: ص٤٨٠، انتشارات استقلال، طهران ـ إيران.

(٣) **إحياء علوم الدين**، تصنيف: الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، المتوفّى سنة ٥٠٥هـ: ج٣ ص٤٩، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

(٤) **إحياء علوم الدين**: ج٣ ص٥٠.

(٥) **المحجّة البيضاء**: ج٥ ص٨٩.

● وعنه صلى الله عليه وآله: «**إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**»(١).

● وقال أنس: قال النبي صلى الله عليه وآله: «**إنّ العبد ليبلغ بحسن خُلُقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنّه لضعيف العبادة**»(٢).

● وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخُلُق**»(٣).

● وعن أُسامة بن شريك، قال شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وآله يقولون : ما خير ما أُعطي العبد؟ قال: **حسن الخُلُق**»(٤).

● وقال صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ: «**يا أبا ذرّ لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخُلُق**»(٥).

● وعنه صلى الله عليه وآله: «**إنّ المسلم المسدّد ليدرك درجة**

(١) أخرجه الترمذي في البرّ والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، برقم ٢٠١٨ من حديث جابر، وأحمد في المسند ج٢ ص١٨٩، نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة** ج١ ص٤٩، الحاشية: ٢.

(٢) **المحجّة البيضاء**: ج٥ ص٩٣.

(٣) أخرجه الطبراني والبزاز وأبو يعلى من حديث أبي هريرة، وبعض طرق البزاز رجاله ثقات كما في المغني، نقلاً عن **المحجّة**: ج٥ ص٩٠.

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده، تحت رقم ١٢٣٣، عن **المحجّة**: ج٥ ص٩١.

(٥) أخرجه ابن ماجة في السنن تحت رقم: ٤٢١٨، نقلاً عن **المحجّة**: ج٥ ص٩٢.

الصائم القائم بحسن خُلقه»[١].

● وقال أنس: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً إذ قال: «**إنّ حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد**»[٢].

● وعنه صلى الله عليه وآله: «**حسن الخلق، خلق الله الأعظم**»[٣].

من هنا ورد الحثّ على التشبّه بأخلاق الله تعالى، كما وقع في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[٤].

قال بعض المحقّقين: «والتخلّق هو التحقّق والاتّصاف بحقيقة ذلك الخلق، لا العلم المفهومي بمعناه، كما يحصل بالرجوع إلى المعاجم، بأنّ الراحم كذا والعطوف كذا، ومنه يتّضح معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة**»[٥] حيث إنّ المراد هو التخلّق بحقائق تلك الأسماء، كما ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: **إنّ لله تسعة وتسعين خُلقاً، من**

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب حسن الخُلق من حديث عائشة، برقم: ٤٧٩٨، وابن حبّان في صحيحه ج١ ص٣٥٠، نقلاً عن **أخلاق النبي في القرآن والسنّة** ج١ ص٤٨، الحاشية: ٣.

(٢) **المحجّة البيضاء**: ج٥ ص٩٢.

(٣) المصدر السابق: ج٥ ص٩٠.

(٤) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، تأليف العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسي قدس سره: ج٦١ ص١٢٩، مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

(٥) **الخصال**، للصدوق، ص٥٩٣، الحديث: ٤، طبع جامعة المدرّسين بقم.

تخلّق بها دخل الجنّـة، لأنّ الأحاديث يعطف بعضها على بعض، كما أنّ القرآن ينطق بعضه على بعض»[١].

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعـة**، تصـحيح وتعليـق آيـة الله حسـن زاده آملي: ج١ ص٣٠.

البحث الأوّل

تعريف علم الأخلاق

قبل الدخول في تعريف علم الأخلاق لابدّ من الوقوف على ما هو المراد من الأخلاق لغة واصطلاحاً.

الأخلاق لغة

الأخلاق: جمع خُلق - بضمّ الخاء وبضمّ اللام وسكونها - والخُلق في اللغة يطلق على معان. قال في تاج العروس: «والخُلق» بالضمّ وبضمّتين: السجيّة، وهو ما خلق عليه من الطبع، وقال ابن الأعرابي، الخُلق: المروءة، والخُلق: الدين.. والجمع أخلاق»[1]. وقد ميّزوا بين الخَلق بالفتح والخُلق بالضمّ - وإن كانا في الأصل واحد، كالشرب والشُرب - لكن «خصّ الخَلق بالهيئات والأشكال والصور

(١) **تاج العروس من جواهر القاموس**، تأليف: السيّد محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي: ج٢٥ ص٢٥٧، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع؛ **لسان العرب**، للإمام العلاّمة ابن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١هـ): ج٤ ص١٩٣، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

المدركة بالبصر، وخصّ الخُلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[١].

توضيح ذلك أنّ «الخَلق والخُلق» عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخَلق والخُلق ـ أي حسن الظاهر والباطن ـ فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلق الصورة الباطنة، وذلك لأنّ الإنسان مركّب من جسد مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكلّ واحد منهما هيئة وصورة إمّا قبيحة وإمّا جميلة، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظّم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فنبّه على أنّ الجسد منسوب إلى الطين ، والروح إلى ربّ العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد»[٢].

أصل اشتقاقه: قال ابن فارس: «الخاء واللام والقاف أصلان: أحدها: تقدير الشيء. والآخر: ملامسة الشيء. فأمّا الأوّل فقولهم: خَلَقت الأديم للسقاء، إذا قدّرته... ومن ذلك: الخُلق وهي السجيّة، لأنّ صاحبها قد قُدّر عليه، وفلان خليق بكذا، وأخلق به، وما أخلقه، أي هو ممّن يقدّر فيه ذلك، والخلاق: النصيب، لأنّه قد قدّر لكلّ أحد نصيبه. وأمّا الأصل الثاني، فصخرة خلقاء، أي ملساء»[٣].

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص١٥٨، مادّة «خلق».

(٢) **إحياء علوم الدين**: ج٣ ص٥٣.

(٣) **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: ج٢ ص٢١٣،

الأخلاق اصطلاحاً

قال مسكويه في «تهذيب الأخلاق»: «الخُلق حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة»[١].

وتبعه على هذا التعريف كثير ممّن أتى بعده ومنهم الغزالي في «إحياء العلوم» حيث قال: «الخُلق: عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سمّيت تلك الهيئة خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سمّيت الهيئة التي هي المصدر خُلقاً سيّئاً، وإنّما قلنا إنّها هيئة راسخة، لأنّ من يصدر منه بذل المال على الندور، لحاجة عارضة، لا يقال خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رويّة، لأنّ من تكلّف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويّة، لا يقال خُلقه السخاء والحلم. فهاهنا أربعة أُمور:

أحدها: فعل الجميل والقبيح.

والثاني: القدرة عليهما.

والثالث: المعرفة بهما.

تحقيق وضبط عبد السلام محمّد هارون.

(١) **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، لأبي علي أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي «مسكويه» (ت: ٤٢١هـ)، قدّم له الشيخ حسن تميم القاضي الشرعي: ص٥١.

والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسّر عليها أحد الأمرين، إمّا الحسن وإمّا القبيح.

وليس الخُلق عبارة عن الفعل، فربّ شخص خُلقه السخاء ولا يبذل؛ إمّا لفقد المال أو لمانع. وربما يكون خُلقه البخل وهو يبذل إمّا لباعث أو لرياء، وليس هو عبارة عن القوّة، لأنّ نسبة القوّة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدّين واحد، وكلّ إنسان خُلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خُلق البخل ولا خُلق السخاء. وليس هو عبارة عن المعرفة، فإنّ المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعدّ النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة»[1].

قوله: «الخلق: عبارة عن هيئة للنفس راسخة...» إشارة إلى وجود هيئات للنفس غير راسخة أيضاً، إذ الهيئات النفسانية على قسمين:

الأوّل: هيئات غير راسخة، وهي الهيئات التي تزول بسرعة كاحمرار وجه الإنسان عند الخجل أو اصفراره عند الخوف.

الثاني: هيئات راسخة، وهي التي لا تزول، إمّا لا تزول أصلاً كلون الإنسان مثلاً، لأنّها غير اختيارية، أو لا تزول بسهولة، وإذا زالت لسبب ما، فإنّها سرعان ما ترجع مرّة أُخرى، وهذه مورد بحوثنا، وتسمّى

(١) **إحياء علوم الدين**، الغزالي: ج٣ ص٥٣.

بالملكات الاختيارية، كالعدالة والشجاعة. فالعادل قد يرتكب ما ينافي العدالة، ولكنّه سرعان ما يندم على فعلته ويعود إلى عدالته، ولعلّ هذه الآية المباركة تشير إلى هذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1].

ثمّ اشترط السهولة واليسر في صدور الأفعال عن هذه الهيئات، فلو صدرت من فاعلها بصعوبة وتردّد، لما عدّت له تلك الصفة ملكة وخُلقاً، فمن يتردّد مرّات عديدة قبل أن يتصدّق على فقير لا يعدّ سخيّاً، ومن يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرى في ساحة الحرب لا يعدّ شجاعاً، بل السخي من يبذل بسهولة ويسر ويتصدّق من غير رويّة، والشجاع من يتقدّم في ساحات الحرب كالبرق الخاطف لا يرهبه شيء.

ثمّ إنّه بمقدار رسوخ هذه الملكات في وجود الإنسان في هذه النشأة، يتحدّد حال الإنسان عند المرور على الصراط في النشأة الأُخرى. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**الناس يمرّون على الصراط طبقات، والصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عدْو الفرس، ومنهم من يمرّ حَبْواً، ومنهم من يمرّ مشياً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً، قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً**»[2].

(١) الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) **أمالي الصدوق**: ص٢٤٧، تحقيق مؤسّسة البعثة – قم.

وقد تطلق «الأخلاق» ويراد بها «خصوص الملكات الفاضلة، كما أنّها قد تعمّم تارةً إلى نفس الأفعال القيمية، وأُخرى إلى الحالات الشوقية وغيرها من مبادئ الأفعال القيمية وإن لم تبلغ حدّ الملكة»[١]. والمبحوث عنها في المقام هي الملكات في بعديها الإيجابي والسلبي.

نعم يبقى هناك بحث آخر، وهو: هل يشترط أن تكون هذه الهيئات النفسانية الراسخة حاصلة باختيار الإنسان من خلال الممارسة والرياضة ونحوهما، أو لا يشترط ذلك بل تشمل حتّى تلك الصفات والملكات غير الاختيارية أيضاً.

ما ذكر في تعريف مسكويه والغزالي وجملة من الأعلام، عامٍ يشمل كلا النحوين من الهيئات؛ قال مسكويه: «منها: ما يكون طبيعياً من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحرّكه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقلّ سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمّ ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها، ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه الفكر، ثمّ يستمرّ عليه أوّلاً فأوّلاً، حتّى يصير ملكة وخلقاً»[٢].

وهذا ما سنقف عليه عند التعرّض لمسألة إمكان إزالة الأخلاق وعدمه.

---

(١) **تعليقة على نهاية الحكمة**، محمّد مصباح اليزدي: ص١٧٢، التعليقة: ١٨٤.

(٢) **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، مصدر سابق: ص ٥١.

موقع علم الأخلاق في منظومة المعارف

قبل الدخول في تعريف «علم الأخلاق» لا بأس بالإشارة إلى موقع هذا العلم في منظومة المعارف الإنسانية.

قسّم فلاسفة المسلمين الحكمة بالمعنى الاصطلاحي إلى الحكمة بالمعنى الأعمّ والحكمة بالمعنى الأخصّ، وكانت الحكمة بالمعنى الأعمّ، لا تختصّ بعلم أو فنّ خاصّ، بل تشمل جميع العلوم النظرية والعملية معاً، كالطبيعيات والرياضيات والإلهيات بما فيها مباحث المبدأ والمعاد، وكذلك علم السياسة والأخلاق وغيرهما. وهذا المعنى من الحكمة يرادف الفلسفة بالمعنى الأعمّ، فإنّها كانت شاملة لجميع العلوم النظرية والعملية معاً. قال ابن سينا في الشفاء: «إنّ العلوم الفلسفية تنقسم إلى النظرية والعملية، والنظرية تنقسم إلى الطبيعة والتعليمية والإلهية، والعملية إلى الخُلقية والسياسية»[1] ويعود جذور ذلك إلى اليونانيين، حيث كانت الفلسفة تطلق عندهم ويقصد منها معنىً عام يشمل كلّ العلوم النظرية والعملية.

ثمّ ذكروا في وجه تقسيم الحكمة إلى النظرية والعملية، أنّ المعلوم إذا كان خارجاً عن حيطة قدرتنا واختيارنا فهو الحكمة النظرية، وإذا كان من أفعالنا وفي حيطة قدرتنا فهو العملية، بعبارة أُخرى: إنّ المعارف المرتبطة بالحكمة النظرية لا تتضمّن «ينبغي أن

(١) **الشفاء**، الإلهيات، ابن سينا: ص٣، ٤، ٦ الفصل الأوّل من المقالة الأولى، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم المقدّسة: ١٤٠٤.

نفعل ولا ينبغي أن نفعل» بخلاف المعلومات المتعلّقة بالحكمة العملية، فإنّها تتضمّن ذلك. قال السهروردي: «لمّا كان الأمر منها ما لا يتعلّق بأعمالنا كالسماء والأرض، ومنها ما يتعلّق بها، سمّي العلم المتعلّق بالأوّل الحكمة النظرية وبالثاني الحكمة العملية»[١].

ولا يخفى أنّ مدركات الحكمة النظرية والعملة تدخلان معاً تحت القوّة النظرية في النفس الإنسانية، لأنّ في النفس قوّة تدرك من خلالها الحقائق والمعارف النظرية والعملية، وقوّة يحصل من خلالها تدبير البدن. وقد اصطلح جملة من المحقّقين على تسمية القوّة النظرية بالعقل النظري، والقوّة العملية بالعقل العملي. قال بهمنيار في التحصيل: «اعلم أنّ النفس الإنسانية تقوى على إدراك المعقولات، وعلى التصرّف في القوى البدنية، فبإحداهما تقبل النفس على مفيد الصورة المعقولة وتسمّى عقلاً نظرياً، وبالأُخرى تقبل على البدن وتتصرّف في قواها وتسمّى عقلاً عملياً، لأنّ بها تعمل النفس وليس من شأنها أن تدرك شيئاً، بل هي عمّالة فقط»[٢].

وتأسيساً على ذلك فلا ينبغي الخلط، كما وقع في بعض كلمات

---

(١) **التلويحات**، السهروردي: ص٢، نقلاً عن كتاب رحيق مختوم، شرح حكمة متعالية، القسم الأوّل من الجزء الأوّل: حكيم متألّه: حضرت آية الله جوادي آملي: ج١ ص١٤٢ (بالفارسية).

(٢) **التحصيل**، بهمنيار بن المرزبان، تصحيح وتعليق: مرتضى مطهري: ص٧٨٩ منشورات كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية، العدد ٢٩.

الأعلام، بين العقل النظري والعقل العملي من جهة، وبين الحكمة النظرية والحكمة العملية من جهة أُخرى، لأنّ الحكمة النظرية والعملية معاً ترتبطان بالعقل النظري في الإنسان، أجل تختلف مدركات الحكمة النظرية عن العملية، في أنّ الأخيرة تستلزم جرياً عملياً بخلاف الأُولى فإنّها ليست كذلك.

ثمّ ذكروا أنّ الحكمة النظرية تنقسم انقساماً أوّلياً إلى الطبيعيات والرياضيات والإلهيات، والحكمة العملية أيضاً لها أقسام، هي تهذيب الأخلاق وسياسة المدن وتدبير المنزل.

أمّا وجه تقسيم الحكمة النظرية إلى الأقسام الثلاثة، فبحثه موكول إلى الدراسات الفلسفية[1]، وأمّا تقسيم الحكمة العملية، فوجه الضبط فيها أنّ الحكمة العملية الباحثة عن الموجودات التي وجودها باختيارنا وفعلنا هي ثلاثة؛ لأنّها إمّا أن تتعلّق بتعليم الآراء التي تنتظم باستعمالها المشاركة الإنسانية العامّة وتعرف بتدبير المدينة وتسمّى علم السياسة، وإمّا أن تتعلّق بما تنتظم بها المشاركة الإنسانية الخاصّة وتسمّى تدبير المنزل، وإمّا أن تتعلّق بما ينتظم به حال الشخص الواحد في تزكية نفسه وتصفية ذهنه، ليستعدّ بذلك لقبول العلوم النظرية التي بها تحصل السعادة العظمى والسيادة الكبرى، وخلافة الله في الأرض والسماء، وتسمّى علم الأخلاق.

---

(١) **دروس في الحكمة المتعالية**، شرح كتاب بداية الحكمة: ج١ ص١٢٢، السيّد كمال الحيدري، دار الصادقين.

تعريف علم الأخلاق

بعد أن اتّضح موقع علم الأخلاق، وأنّه أحد أقسام الحكمة العملية، نأتي لتعريف هذا العلم، كما جاء في كلمات جملة من الأعلام.

قال الطباطبائي: «علم الأخلاق: هو الفنّ الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلّقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية، ليميّز الفضائل منها عن الرذائل، ليستكمل الإنسان ـ بالتحلّي والاتّصاف بها ـ سعادته العلمية، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني[1].

وأراد (قدّس سره) بلفظ «الفنّ» الوارد في التعريف: «العلم»، كما أنّ لفظ الملكات تعبير آخر عن الهيئات الراسخة في الإنسان، فالراسخ من الملكات فيه يسمّى «ملكة» وغير الراسخ هو «الحال».

كما أشار إلى أنّ ملكات الإنسان الأساسية تتعلّق بقوى ثلاث موجودة فيه، هي النباتية والحيوانية والإنسانية، وأنّ مهمّة علم الأخلاق، هي التمييز بين الصالح والطالح من هذه الملكات، ليستكمل الإنسان بالصالح منها سعادته العلمية والعملية.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١ ص٣٧٠.

قوى النفس الظاهرة والباطنة

إنّ التعرّف على قوى الإنسان أمر مهمّ من أجل الوقوف على تعريف علم الأخلاق بصورة دقيقة. قال الشيخ في الشفاء: «القوى النفسانية منقسمة بالقسمة الأوّلية إلى ثلاثة أجناس:

أحدها: النفس النباتية، وهي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولّد ويربو ويولد.

وثانيها: النفس الحيوانية، وهي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرّك بالإرادة.

وثالثها: النفس الإنسانية، وهي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الأُمور الكلّية، ويفعل الأفاعيل الكائنة بالاختبار الفكري والاستنباط بالرأي، ولكلّ درجات متفاوتة في الكمالية والنقص.

وللنفس النباتية قوى ثلاث:

- **القوّة الغاذية** وهي التي تحيل جسماً إلى مشاكلة الجسم الذي هي فيه، وتلصقه وتشبّهه به بدل ما يتحلّل عنه.
- **القوّة المنمّية** وهي قوّة تزيد في الجسم الذي هي فيه بالجسم المشبّه به زيادة متناسبة في أقطاره طولاً وعرضاً وعمقاً، ليبلغ به كماله في النشوء.
- **القوّة المولّدة** وهي التي تأخذ من الجسم الذي هي فيه مادّة شبيهة به بالقوّة، فتفعل فيها باستمداد أجسام أُخرى يتشبّه بها من التخليق والتمزيج ما يصيّره به شبيهاً بالفعل.

وللنفس الحيوانية بالقسمة الأوّلية قوّتان: **محرّكة**، و**مدركة**، والمحرّكة على قسمين، إمّا محرّكة بأنّها باعثة على الحركة، وإمّا محرّكة بأنّها فاعلة.

و**المحرّكة على أنّها باعثة**، هي القوّة النزوعية الشوقية، وهي القوّة التي إذا ارتسمت في التخيّل ـ الذي سنذكره بعد ـ صورة مطلوبة أو مهروبة عنها، بعثت القوّة المحرّكة الأُخرى ـ التي نذكرها ـ على التحريك ولها شعبتان:

- شعبة تسمّى، قوّة **شهوانية**، وهي قوّة تبعث على تحريك تقرب به من الأشياء المتخيّلة، ضرورية أو نافعة طلباً للذّة.
- وشعبة تسمّى **غضبية**، وهي قوّة تبعث على تحريك تدفع به الشيء المتخيّل، ضارّاً أو مفسداً طلباً للغلبة.

وأمّا **القوّة المحرّكة على أنّها فاعلة**، فهي قوّة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنّج العضلات، فتجذب الآثار والرباطات المتّصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ، أو تمدّها طولاً، فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ.

وأمّا القوى المدركة، فتنقسم إلى قسمين:

منها: قوّة تدرك من خارج. ومنها: قوّة تدرك من داخل.

فالمدركة من خارج هي الحواس الخمس المشهورة، اللمس والذوق والشمّ والسمع والبصر»[1].

(١) **الشفاء**، الطبيعيات، النفس: ص٣٢، الفصل الخامس من المقالة الأولى.

وأمّا القوى المدركة من باطن فهي «إمّا أن تكون مدركة للجزئيات أو للكلّيات، والمدركة للجزئيات، إمّا أن تكون من الحواس الظاهرة وقد عرفتها، وإمّا أن تكون من الحواس الباطنة. ثمّ إنّ الحسّ الباطني، إمّا أن يكون مدركاً فقط، أو مدركاً ومتصرّفاً، فإن كان مدركاً فقط، فإمّا أن يكون مدركاً للصور الجزئية أو للمعاني الجزئية، وأعني بالصورة الجزئية، مثل الخيال الحاصل عن زيد وعمرو، وأعني بالمعاني الجزئية، مثل أنّ هذا الشخص صديق وذلك الآخر عدو، فالمدرك للصور الجزئية يسمّى حسّاً مشتركاً، وهو الذي يجتمع فيه صور المحسوسات الظاهرة كلّها، والمدرك للمعاني الجزئية يسمّى وهماً. ثمّ لكلّ واحدة من هاتين القوّتين خزانة، فخزانة الحسّ المشترك هو الخيال، وخزانة الواهمة هي الحافظة، فهذه قوى أربع. وأمّا القوّة المتصرّفة، فهي التي من شأنها أن تتصرّف في المدركات المخزونة في الخزانتين (الخيال، الحافظة) بالتركيب والتحليل، فتركّب إنساناً بصورة طير، وجبلاً من زمرّد، وبحراً من زئبق.

وهذه القوّة إن استعملتها القوّة الوهمية الحيوانية تسمّى متخيّلة، وإن استعملتها القوّة الناطقة تسمّى باسم المفكّرة»[1].

والحاصل أنّ القوى الباطنة هي:

١ ـ الحسّ المشترك

«أو ما يسمّى لوح النفس ولوح النقش أيضاً، ويقال له في اليونانية

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٨ ص٥٦، بتصرّف.

بنطاسيا بتقديم الباء على النون، و *فنطاسيا* بالفاء أيضاً، ويطلق عليه *الخيال* أيضاً بالاشتراك اللفظي، وهو مظهر الاسم الشريف الإلهي (من لا يشغله شأن عن شأن) فلا يشغله ما يدركه بعض الحواس، عمّا يدركه بعضها الآخر في آن، فافهم.

وتسمّى هذه القوّة بالحسّ المشترك؛ لوجهين:

أحدهما: أنّه (أي الحسّ المشترك) مصبّ مدركات الحواس الظاهرة كلّها، وهي كالجداول المتّصلة به، تؤدّي إليه ما اقتنصته.

وثانيهما: أنّه كمرآة ذات وجهين، ينتقش فيه ما يصطاده الإنسان من الشهادة والغيب، فوجه منه متوجّه إلى هذه النشأة ويرتسم فيه صور المحسوسات، ووجهه الآخر متوجّه إلى النشأة الأُخرى، ويتصوّر فيه ما صوّرته المتخيّلة، لانّ قوّة الخيال جُبلت على المحاكاة وتصوير المعاني بصور مناسبة لها، فتلك الصور ترتسم في الحسّ المشترك»[1].

٢ ـ الخيال

قلنا إنّ هذه القوّة هي خزانة الصور التي يكسبها الحسّ المشترك من خلال الحواس الظاهرة، وتحفظ فيه. ولكي نقف على دور هذه القوّة لابدّ من الإشارة إلى «أنّ الإدراكات الإنسانية عن الواقع الخارجي لها مراتب ثلاث، وهي الحسّ والخيال والتعقّل:

---

(١) **عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون**، آية الله حسن زاده آملي: ص٤٤١، العين: ٣٠، الطبعة الأولى.

أمّا مرتبة الحسّ، فهي عبارة عن انعكاس صور الأشياء في الذهن عند الاتّصال المباشر بالخارج من خلال إحدى الحواس الخمس.

أمّا مرتبة الخيال فهي المرتبة التي تبدأ من حيث ينتهي الإدراك الحسّي لأنّ هذا الإدراك يخلّف أثراً في النفس، أو بتعبير القدماء: إنه بعد ظهور الصورة الحسّية في الباصرة ـ مثلاً ـ تظهر صورة أُخرى في قوّة أُخرى من قوى النفس تسمّى بالخيال، وبعد أن تنمحي الصورة الحسّية، فإنّ الصورة الخيالية تبقى على حالها، ويستطيع الإنسان أن يستحضرها في أي وقت يشاء، وبهذا الطريق يستطيع أن يتصوّر الشيء الخارجي.

ثمّ إنّ الصورة الخيالية تشبه الصورة المحسوسة ولكن مع فوارق.

الأوّل: إنّ الصورة الخيالية ـ في الغالب ـ ليس لها وضوح الصورة الحسّية.

الثاني: إنّ الصورة الحسّية عندما يدركها الإنسان، تكون بوضع خاصّ، أي لها نسبة خاصّة إلى الأجزاء المجاورة لها، وفي جهة معيّنة، أي إلى اليسار أو اليمين أو الأمام أو الخلف، وفي مكان محدّد، فمثلاً إذا شاهد الإنسان شيئاً، فهو يشاهده في مكان معيّن وجهة معيّنة وملابسات محدّدة. أمّا إذا أراد الإنسان أن يتخيّل ذلك الشيء الذي رآه مراراً، وبأوضاع وجهات مختلفة وأماكن متعدّدة، فهو يستطيع أن يجسّمه أمام خياله دون أن يلتفت إلى وضعه وجهته ومكانه.

الثالث: أهمّ شرط في الإدراكات الحسّية، هو اتّصال الحواس

بالخارج، وبمجرّد زوال ذلك، فإنّ الإدراك الحسّي يزول معه أيضاً، أمّا الإدراكات الخيالية للذهن فهي ليست بحاجة إلى الاتّصال بالخارج مباشرة، ولهذا تكون الإدراكات الحسّية خارجة عن اختيار الشخص المدرك، بمعنى أنّه لا يستطيع أن يحصل على علم حسّي ما لم يرتبط بالمادّة الخارجية، ومن هنا فلا يستطيع عادة أن ينظر إلى وجه إنسان غير حاضر أو يسمع صوته ولكنّه يستطيع أن يتخيّل هذه جميعاً ويتصوّرها في أي وقت يشاء مع عدم وجود مادّتها الخارجية»[١].

وقد يطلق على هذه القوّة: **المصوّرة** أيضاً؛ قال الشيخ في «الشفاء»: «إنّ القوّة المصوّرة التي هي الخيال، هي آخر ما يستقرّ فيه صور المحسوسات وإن وجهها إلى المحسوسات هو الحسّ المشترك، وإنّ الحسّ المشترك يؤدّي إلى القوّة المصوّرة على سبيل استخزان ما تؤول به إليه الحواس فتخزنه، وقد تخزن القوّة المصوّرة أيضاً أشياء ليست من المأخوذات عن الحسّ»[٢] كما تقدّم. وعلى هذا «فالخيال والمصوّرة هما اسمان لخزانة الحسّ المشترك، إلاّ أنّ الخيال على اصطلاح الحكماء، والمصوّرة على اصطلاح الأطباء»[٣].

وقد تطلق المصوّرة ويراد بها «الطابعة»؛ قال الشيخ في «كلّيات القانون»: «وأمّا المصوّرة الطابعة، فهي التي يصدر عنها ـ بإذن خالقها

(١) **دروس في الحكمة المتعالية**، تأليف: السيّد كمال الحيدري: ج١ ص٤٠٣.
(٢) **الشفاء**، النفس، ص١٥١، الفصل الثاني من المرحلة الرابعة.
(٣) **عيون مسائل النفس**: ص٤٧١، العين: ٣٢.

تبارك وتعالى ـ تخطيط الأعضاء وتشكيلاتها وتجويفاتها وثقبها وملاستها وخشونتها وأوضاعها ومشاركتها، وبالجملة الأفعال المتعلّقة بنهايات مقاديرها»[١]. والمصوّرة هذه من شعب المولّدة، كما ذكر الأعلام.

ولا يتنافى ذلك مع قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٣] لأنّ القوّة المصوّرة بهذا المعنى إنّما هي آلة أو واسطة في هذا الفعل، لوجود موجود من وراء الطبيعة هو المتفرّد بالجبروت، لا أنّ تلك القوّة مستقلّة في هذه الأفعال العجيبة.

ونظائر ذلك في نسبة إيجاد الفعل إلى الله تعالى، وإسناده إلى الوسائط كثير جداً. فبعد أن حصر القرآن فعل الإحياء والإماتة بالله، وصرّح بأنّ الله وحده هو المميت والمحيي، فقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٥]، عاد يسند الإحياء إلى

(١) **القانون**: ص١٤١، نقلاً عن **عيون مسائل النفس**: ص٤٧١، العين: ٣٢.
(٢) آل عمران: ٦.
(٣) الحشر: ٢٤.
(٤) الزمر: ٤٢.
(٥) آل عمران: ١٥٦.

غيره، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾[١]، أو قوله سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾[٢]. كذلك في الإماتة، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٣] وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[٤].

على مستوى آخر، بعد أن أثبت القرآن أنّ الله هو الغني الحميد، وأنّه لا غنيّ سواه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٥] عاد يسند الغنى والإغناء إلى رسوله محمّد صلى الله عليه وآله أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٦]. وكذلك تكرّر الأمر بحذافيره في العزّة والقوّة، فبعد أن نصّ القرآن في موضوع العزّة بقوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[٧] عاد يقول: ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٨]. وبعد أن حصر القوّة بالله تعالى وحده ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[٩] عاد يسجّل ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ

(١) المائدة: ٣٢.
(٢) آل عمران: ٤٩.
(٣) السجدة: ١١.
(٤) الأنعام: ٦١.
(٥) فاطر: ١٥.
(٦) التوبة: ٧٤.
(٧) النساء: ١٣٩.
(٨) المنافقون: ٨.
(٩) البقرة: ١٦٥.

بِـقُوَّةٍ﴾[١] وقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِـهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[٢] وهكـذا تكـرّر الأمـر علـى مسـتوى الخلق والولاية والحكم والطاعة وغيرها.

٣ ـ الوهم

اتّفقت كلمة الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين على أنّ الإدراكات البشـرية يمكـن تصـنيفها إلـى عـدّة درجـات: الإدراكـات الحسّـية، والإدراكات الخيالية، والإدراكات العقلية.

أمّا الإدراك الوهمي الذي تقـدّم أنّـه القـوّة التـي تـدرك المعـاني الجزئية، فهل هو درجة أُخرى من الإدراك تختلف عن غيرها، أو أنّها ترجع إلى غيرها؟ وقع فيه بحـث وتأمّـل عنـد جملـة مـن الفلاسـفة كالشيرازي وأتباعه «حيث ذهبوا إلى أنّ القـوّة الواهمـة، مرتبـة نازلـة للعقل، وأنه لا يوجد فرق ذاتي بين الإدراك الوهمي والإدراك العقلي، وإنّما الفـارق بينهمـا هـو بـأمر خـارج، وهـو الإضـافة إلـى الجزئـي وعدمها»[٣].

وتوضيح ذلك يستلزم بيان المراد من التعقّل إجمالاً.

لو أخذنا بعين الاعتبار عدّة صور خيالية لعـدّة أشـياء محسوسـة،

---

(١) مريم: ١٢.

(٢) النمل: ٣٩.

(٣) **عيون مسائل النفس**: ص٤٦٣، العين: ٣١.

تشترك مع بعضها في جهات من الاشتراك، واقتنصنا منها وجهاً مشتركاً بين جميع هذه الأفراد، وصغنا منها مفهوماً كلّياً يشمل جميعها، فهذا المفهوم الذي يصدق على الأفراد الكثيرة وحتّى غير المتناهية يُدعى بـ «المعقول». وهذا معناه أنّ المعقول هو ذلك المفهوم الكلّي الذي يقبل الصدق على كثيرين. والفارق الأساسي بين هذه المرتبة والمرتبتين السابقتين، أنّ العلم فيهما جزئي لا يمكن أن ينطبق على أكثر من فرد واحد، بخلاف هذه المرتبة فإنّ العلم فيها كلّي، فيه قابلية الانطباق على كثيرين.

إذا اتّضح ذلك نقول: «إنّ الوهم وإن كان غير القوى التي ذكرت، إلاّ أنّه ليس له ذات مغايرة للعقل، بل هو عبارة عن إضافة الذات العقلية إلى شخص جزئي، وتعلّقها به وتدبيرها له. فالقوّة العقلية المتعلّقة بالخيال هو الوهم، كما أنّ مدركاته هي المعاني الكلّية المضافة إلى صور الشخصيات الخيالية، وليس للوهم في الوجود ذات أُخرى غير العقل، كما أنّ الكلّي الطبيعي والماهية من حيث هي لا حقيقة لها غير الوجود الخارجي أو العقلي»[1].

فتحصّل «أنّ وجود الوهم كوجود مدركاته أمر غير مستقلّ الذات والهوية، ونسبة مدركاته إلى مدركات العقل، كنسبة الحصّة من النوع إلى الطبيعة الكلّية النوعية، فإنّ الحصّة طبيعة مقيّدة بقيد شخصي، على أن يكون القيد خارجاً عنها، والإضافة إليه داخلاً فيها على أنّها إضافة،

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٨ ص٢١٥.

لا على أنّها مضاف إليه، وعلى أنّها نسبة وتقييد، لا على أنّها ضميمة وقيد.

فالعداوة المطلقة يدركها العقل الخالص، والعداوة المنسوبة إلى الصورة الشخصية، يدركها العقل المتعلّق بالخيال، والعداوة المنضمّة إلى الصورة الشخصية يدركها العقل المشوب بالخيال. فالعقل الخالص مجرّد عن الكونين (الخارجي والذهني) ذاتاً وفعلاً، والوهم مجرّد عن هذا العالم ذاتاً وتعلّقاً، وعن الصورة الخيالية ذاتاً لا تعلّقاً، والخيال مجرّد عن هذا العالم ذاتاً لا تعلّقاً»[1].

٤ ـ الحافظة

قال الشيرازي في الأسفار: «وأمّا القوّة الحافظة، فهي خزانة عندهم للوهم، اختزنت فيها صور مدركاته، كما أنّ الخيال خزانة للحسّ المشترك، وقد تسمّى أيضاً ذاكرة ومسترجعة، لكونها قويّة على استعادتها، وهذه الاستعادة تارةً تكون من الصورة إلى المعنى، وذلك إذا أقبل الوهم مستعيناً بالمتخيّلة، ليستعرض الصور الموجودة في الخيال، إلى أن عرضت له الصور التي أدرك معها ذلك المعنى، وحينئذ يلوح ذلك المعنى المحفوظ في الخزانة. وتارةً يكون المصير من المعنى إلى الصورة، إمّا باستعراض المعاني التي في الحافظة، إلى أن عرض له المعنى الذي أدرك معه الصورة التي تطلب، وإن تعذّرت من

(١) **عيون مسائل النفس**: ص٤٦٤، العين: ٣١.

هذه الجهة لانمحاء الصورة عن الخيال بالنسيان أو لمانع آخر، فيحتاج إلى إحساس جديد، فحينئذ يورد الحس الظاهر تلك الصورة، وتصير مستقرّة في الخيال، فيعود بسببه المعنى المستقرّ في الحافظة»[١].

٥ ـ المتصرّفة

قلنا إنّ الحافظة هي خزانة المعاني الجزئية، والخيال هو خزانة الصور الجزئية، والمتصرّفة «جالسة بينهما ومتصرّفة فيهما بالتركيب والتفصيل في الصور والمعاني، وكلّ ما يصدر من الإنسان من الحرف والصنائع والآثار القلمية وغيرها، فهي أوّلاً تعمل وتصطنع في المتصرّفة، ثمّ على وزان ما صنع فيها تصدر في الخارج، وكلّما كان المزاج أعدل، كان منشآته أعدل، فاعمل بصيرتك في ما قال ـ عزّ من قائل ـ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[٢] فترى إنساناً ينشئ مطلباً علمياً بعبارات طويلة وأمثلة كثيرة، لكنّه لا يؤدّي آخر الأمر مراده حقّ التأدية، وآخر ينشئ ذلك المطلب بعينه بعبارة وجيزة، كأنّه يريك صحيفة نفسه، وليس ذلك التفاوت إلاّ بتفاوت مزاج المتصرّفة.

٦ ـ المتخيّلة والمفكّرة

قلنا إنّ المتصرّفة إن كانت تحت آمرية الواهمة تسمّى متخيّلة، وإن كانت تحت آمرية العاقلة تسمّى مفكّرة. وعلى هذا فالمفكّرة هي

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٨ ص٢١٨.
(٢) الإسراء: ٨٧.

المتخيّلة لكن باعتبار استعمال الناطقة إيّاها في ترتيب الفكر ومقدّماته. والمتخيّلة هي المفكّرة لكن باعتبار استعمال الوهم لها.

وبذلك يتّضح ما ذكره جملة من المحقّقين، من أنّ «رئيس القوى الحيوانية كلّها هو الوهم، ومعناه أنّ سائر القوى من شؤونه، كما أنّ رئيس القوى الإنسانية كلّها هو العقل، أي أنّ سائر القوى من شؤونه»[1]، لأنّ أقصى ما يدركه الحيوان هو المعاني الجزئية، بخلاف الإنسان فإنّه يدرك المعاني الكلّية أيضاً.

والحاصل أنّه يمكن ضبط هذه القوى بهذا النحو، كما بيّنه الطوسي في شرحه على الإشارات؛ قال: «إنّ القوى الحيوانية تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، وهذه القوى (الباطنة) تنقسم إلى مدركة وإلى معينة على الإدراك، والمدركة مدركة إمّا لما يمكن أن يدرك بالحواس الظاهرة وهو ما يسمّى صوراً، وإمّا لما لا يمكن وهو ما يسمّى معاني. والمعينة تعين إمّا بحفظ المدركات من غير تصرّف، ليتمكّن المدركة من المعاودة إلى إدراكها، وإمّا بالتصرّف فيها، والمعينة بالحفظ، معينة إمّا لمدركة الصور، وإمّا لمدركة المعاني، فهذه خمس قوى:

- الأُولى: مدركة الصور، وتسمّى حسّاً مشتركاً، لأنّها تدرك خيالات المحسوسات الظاهرة بالتأدية إليها.
- الثانية: معينتها بالحفظ، وتسمّى خيالاً ومصوّرة.

---

(١) **عيون مسائل النفس**: ص٤٤٣، العين: ٣٠.

- الثالثة: المتصرّفة في المدركات وتسمّى متخيّلة ومتفكّرة باعتبارين.
- الرابعة: مدركة المعاني، وتسمّى وهماً ومتوهّمة.
- الخامسة: معينتها بالحفظ، وتسمّى حافظة وذاكرة.

وإنّما سمّي الجميع مدركة وإن كانت المدركة منها اثنتين فقط، لأنّ الإدراكات الباطنة لا تتمّ إلاّ بجميعها»[١].

أبواب الجنّة والجحيم

ذكر جملة من الأعلام نكتة لطيفة في المقام مؤدّاها أنّ كلّ واحدة من الحواس الخمس الظاهرة والحاسّتين الباطنتين أي الخيال والوهم، إذا استعملها العقل في الطاعات واقتناء الخيرات، واصطياد الحقائق النورية، صارت أبواب الجنان، فهي مع العاقلة ثمانية أبواب للجنّة، والمرويّ عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**أحسنوا الظنّ بالله، واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب، عرض كلّ باب منها مسير أربعمائة سنة**»[٢]. وإن لم تكن تحت إطاعة العاقلة، فهي تصير سبعة أبواب

(١) **الإشارات والتنبيهات**، للشيخ أبي علي حسين بن عبد الله بن سينا: ج٢ ص٣٣١ في علم الطبيعة، مع الشرح للمحقّق نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي، وشرح الشرح للعلاّمة قطب الدين محمّد بن محمّد بن أبي جعفر الرازي.

(٢) **الخصال** للشيخ الجليل الأقدم الصدوق، المتوفّى: سنة ٣٨١: ج٢ ص٤٠٨، باب الثمانية، الحديث السابع، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي.

لجهنّم؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَاب لِكُلِّ بَاب مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[1].

قال الشيرازي في الأسفار: «إنّه وقع الاختلاف في تعيين هذه الأبواب، فقيل هي المدارك السبعة للإنسان، وهي الحواس الخمس والحاسّتان الباطنتان أعني الخيال والوهم، وهذه الأبواب كما أنّها أبواب دخول النيران، كذلك هي أبواب دخول الجنان إذا استعملها الإنسان في الطاعات ولاقتناء الخيرات... وبالجملة استعملها فيما خلقت لأجله، وللجنّة باب ثامن مختصّ بها هو باب القلب.

وذلك أنّ كلاً من المشاعر السبعة باب إلى الشهوات الدنياوية التي ستصير نيرانات محرقة وهيئات معذّبة للنفوس في الآخرة، وهي أيضاً إذا استعملت في طريق الخير أبواب إلى إدراك الحقائق وفعل الحسنات التي بها يثاب في العاقبة ويصعد إلى الملكوت ويدخل في الجنّة مع زمرة الملائكة.

وبالجملة لكلّ من هذه المشاعر والمدارك باطن وظاهر، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب، فظواهرها أبواب مفتوحة إلى عالم الجحيم أو إلى ما به استحقاقية الدخول إلى الجحيم، وبواطنها أبواب مفتوحة إلى عالم الجنان أو إلى ما به استحقاقية دخولها. وإذا غلقت أبواب النيران، فتحت أبواب الجنان، بل هي على شكل الباب الذي إذا فتح على موضع انسدّ عن موضع آخر، فعين غلق أبواب إحداهما

(١) الحجر: ٤٤ ـ ٤٥.

عين فتح أبواب الأُخرى، إلاّ باب القلب وهو الباب الثامن، فإنّه مغلق دائماً على أهل الحجاب الكلّي والكفر»[١].

قوى النفس الإنسانية

عود على بدء، حيث قلنا إنّ القوى النفسانية تنقسم إلى النفس النباتية، والحيوانية والإنسانية، وتقدّم الكلام عن قوى القسمين الأوّلين، وبقي الحديث في القسم الثالث، فنقول:

تنقسم قوى النفس الإنسانية إلى عاملة وعالمة. أمّا العالمة فهي التي تدرك النفس من خلالها الحقائق والمعارف النظرية والعملية، أي ما اصطلحنا عليه بالحكمة النظرية والعملية. وأمّا العاملة، فهي التي يحصل من خلالها تدبير البدن، وتقدّم أنه اصطلح على تسمية القوّة النظرية بالعقل النظري، والقوّة العملية بالعقل العملي؛ قال في الإشارات: «فمن قواها ما لها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن، وهي القوّة التي تختصّ باسم العقل العملي، وهي التي تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل من الأُمور النفسانية، جزئية ليتوصّل به إلى أغراض اختيارية من مقدّمات أوّلية وذائعة وتجربية، وباستعانة بالعقل النظري في الرأي الكلّي إلى أن ينتقل به إلى الجزئي»[٢].

ولمّا كان العقل هو الذي يميّز الإنسان عن باقي الحيوانات، إذن

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٩ ص٣٣٠.
(٢) **الإشارات والتنبيهات**، ابن سينا: ج٢ ص٣٥٢.

قوى النفس الإنسانية تنحصر في معرفة مراتب هذا العقل، وقد ذكرت له تقسيمات عديدة، ولكن ما يرتبط بالمقام هو ما ذكره بعض المحققين حيث قال: «يطلق اسم العقل بالاشتراك على أربعة معان:

الأوّل: الوصف الذي به يفارق الإنسان سائر البهائم، وهو الذي به استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: إنّه غريزة يتهيّأ بها إدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعات، وكأنّه نور يقذف في القلب، به يستعدّ لإدراك الأشياء... فإنّ الغافل عن العلوم والنائم يسمّيان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة مع فقد العلوم. وكما أنّ الحياة غريزة بها يتهيّأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسّية، فكذلك العقل غريزة بها يتهيّأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية. ويمكن تشبيه ذلك بالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان، لصفة اختصّت بها وهي الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة في هيئات وصفات استعدّت بها للرؤية.

الثاني: عبارة عن العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميّز، بجواز الجايزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد، وأنّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وهو الذي عناه بعض المتكلّمين حيث قال في حدّ العقل: إنّه بعض العلوم الضرورية، بجواز الجايزات واستحالة المستحيلات.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإنّ من

حنّكته التجارب وهذّبته المذاهب يقال: إنّه عاقل في العادة، ومن لا يتّصف بذلك يقال: إنّه غبيّ جاهل».

«ومرجعه إلى جودة الروية وسرعة التفطّن في استنباط ما ينبغي أن يؤثر أو يتجنّب، وإن كان في باب الأغراض الدنياوية وهوى النفس الأمّارة بالسوء، فإنّ الناس يسمّون من له هذه الروية المذكورة عاقلاً، أمّا أهل الحقّ فلا يسمّون هذه الحالة عقلاً، بل أسماء أُخر كالدهاء أو الشيطنة وغيرهما»[1].

الرابع: «أن ينتهي قوّة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأُمور، فيقمع الشهوة الداعية إلى اللذّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوّة سمّي صاحبها عاقلاً، بحيث إنّ إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي يتميّز بها عن سائر الحيوانات.

فالأوّل هو الأُسّ والمنبع، والثاني هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأوّل والثاني، إذ بقوّة الغريزة والعلوم الضرورية يستفاد علوم التجارب، والرابع هي الثمرة الأخيرة، وهي الغاية القصوى، فالأوّلان بالطبع، والأخيران بالاكتساب، ولذلك قال الإمام علي عليه السلام:

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع

(١) **شرح أصول الكافي**، لمؤلّفه: صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي: ج١ ص٢٢٥، كتاب العقل والجهل، عني بتصحيحه: محمد خواجوي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي - إيران.

ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع»[١]

وهذا المعنى الأخير هو الذي أشارت إليه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قلت له: ما العقل؟ قال: **ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان.**[٢] قال المجلسي في مرآة العقول: «والمراد من العقل، ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخيرات والمنافع، واجتناب الشرور والمضارّ، وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية»[٣].

النفس وقواها الأربع

والمهمّ من القوى التي وقع الحديث عنها، وترتبط بعلم الأخلاق ارتباطاً وثيقاً هي:

• **القوّة العقلية:** وشأنها إدراك حقائق الأُمور والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة.

• **القوّة الغضبية:** وهي التي يدفع بها الإنسان الأذى عن نفسه بأي

(١)**آداب النفس** للعارف الحكيم الكامل السيد محمد العيناتي، حقّقه وصحّحه السيد كاظم الموسوي المياموي، منشورات المكتبة الرضوية، ص٧ في الحاشية..
(٢) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١١، كتاب العقل والجهل، الحديث: ٣.
(٣) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، تأليف: العلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي: ج١ ص٢٥.

صورة كانت، مشروعة أو غير مشروعة، بالتي هي أحسن أو بغير ذلك.

● **القوّة الشهوية**: وهي التي يطلب الإنسان بها المنفعة لنفسه، من قبيل طلبه الأكل والشرب والملبس والمنكح، من دون أن تلاحظ هذه القوّة فيما تطلبه من أُمور مسألة الحلال والحرام، أو الطاهر والنجس أو ما ينبغي فعله وما لا ينبغي.

● **القوّة الوهمية**: قلنا إنّ الواهمة والخيال والمتخيّلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى الثلاث الأُول، وشأن الأُولى إدراك المعاني الجزئية كحبّ زيد، وشأن الثانية إدارك الصور كصورة زيد، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما. وكلّ من مدركاتها إما مطابق للواقع أو مخترع من عند نفسها من غير تحقّق له في نفس الأمر، وإمّا من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة. وعلى الأوّل يكون وجودها خيراً وكمالاً، وإن كان وجودها على الثاني شرّاً وفساداً.

والنفس إن تابعت القوّة الشهوية سمّيت «بهيمية» وإن تابعت الغضبية سمّيت «سبعية» وإن تابعت العقلية النطقية سمّيت «ملكية إلهية» وإن تابعت الواهمة وصارت بصدد استنباط المكر والحيل للتوصّل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع سمّيت «شيطانية».

(والفائدة في وجود هذه القوى: أمّا الشهوية، فلبقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس؛ لما سيأتي من أنّ النفس محتاجة إلى البدن في إنجاز أفعالها .

وأمّا الغضبية فلكي تكسر سَوْرة الشهوية والشيطانية، وتقهرهما عند انغمارهما في الخدع والشهوات، وإصرارهما عليهما، لأنّهما لتمرّدهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فإنّهما تطيعانها وتتأدّبان بتأديبها بسهولة.

لذا قال إفلاطون في صفة السبعية والبهيمية: «أمّا هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأمّا تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع».

وقال أيضاً: «ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً، فمن لا تطيعه الوهمية والشهوية في إيثار الوسط، فليستعن بالقوّة الغضبية المهيّجة للغيرة والحمية حتّى يقهرهما».

فلو لم يمتثلا مع الاستعانة، فإن لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما، دلّ على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلاّ فالإصلاح ممكن، فليجتهد فيه ولا ييأس من رَوْح الله، فإنّ سبل الخيرات مفتوحة وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة»، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وأمّا الوهمية فلاستنباط الحيل والدقائق التي يتوصّل بها إلى المقاصد الصحيحة)[2].

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) **جامع السعادات**، للشيخ الجليل المولى محمّد مهدي النراقي، (ت: ١٢٠٩هـ): ج١ ص٦٢، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

اعتدال القوى النفسانية

إنّ لكلّ قوّة من هذه القوى كمالاً وحدّ اعتدال، وحدّي تفريط وإفراط.

أمّا كمال القوّة العلمية والفكرية فهو «أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوّة، حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال فيها تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً﴾[١] والحكمة هي «إصابة الحقّ بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات»[٢]. وعرّفها بعض الأعلام «بأنّها هي القضايا الحقّة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الإنسان، كالمعارف الحقّة الإلهية في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي، من جهة مساسها بسعادة الإنسان، كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية»[٣].

ويسمّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمّى تفريطها بلهاً.

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**: ص١٧٢.

(٣) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢ ص٣٩٥.

وكمال القوّة الغضبية فهو أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمه، وكذلك القوّة الشهوية، فحسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة – أعني إشارة العقل والشرع – .

فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمّى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمّى جبناً وخوراً، وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمّى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمّى جموداً.

ولمّا كانت كلّ قوّة من هذه القوى الثلاث، ترغب بأشياء وتطالب بها وتدفع بالإنسان إلى تحصيلها، حتّى لو كانت على خلاف مصلحة القوّتين الأُخريين، فلا حدّ ـ مثلاً ـ للأكل الذي تطالب به القوّة الشهوية، حتّى لو أثّر ذلك على قوّة الإنسان الفكرية، وأدّى إلى خموله وضعف فكره، من هنا يقع التزاحم بين هذه القوى، وتقع المعركة الكبرى في مملكة النفس، وإلى هذا أشار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حين خاطب القوم الذين رجعوا من الجهاد بقوله: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**. قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: **جهاد النفس**»[1]. وما ذلك إلاّ لأنّ المعارك الخارجية ـ الجهاد الأصغر ـ ذات أمد محدود تنتهي به، وتبقى المعركة الداخلية ـ الجهاد الأكبر ـ مصاحبة للإنسان إلى آخر لحظة من لحظات حياته، ما دامت له شهوة وغضب وعقل.

(١) **الفروع من الكافي**، الكليني: ج٥ ص١٢، باب وجوب الجهاد، الحديث: ٣.

تأسيساً على ذلك، ينبغي للإنسان أن لا يدع قوّة من هذه القوى الثلاث، تسلك مسلك الإفراط أو التفريط، وتميل عن حاقّ الوسط إلى طرفي الزيادة والنقيصة، فإنّ في ذلك خروجاً عن الهدف الذي خلق الإنسان من أجله. ولا طريق له إلاّ أن يقيم العدالة بين هذه القوى، وأن يعطي كلّ ذي حقّ من القوى حقّه، ويضعه في موضعه الذي ينبغي له، فإذا فعل ذلك تحصل في النفس ملكة رابعة هي «العدالة» باصطلاح علم الأخلاق، وهي غير العدالة المصطلح عليها في علم الفقه، وهذه الملكة أيضاً لها جانب تفريط وهو الظلم وحدّ إفراط هو الانظلام.

والحاصل أنّ العدالة في علم الأخلاق «هي الوسط بين طرفين، والوسط محصور بين الأطراف، والأطراف لا تنحصر عند حدّ» وكلّ فضيلة فهي وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط، والوسط هو الصراط المستقيم. لذا نجد أنّ الله تعالى يقول: إنّ الأنبياء جميعاً على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[1]، ثمّ قال في سورة الحمد إنّ المنعَم عليهم هو الصراط المستقيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[2].

فإذا استطاع الإنسان أن يغلّب عقله على شهوته، ويؤمّر العقل على

(١) النساء: ٦٩.

(٢) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

الشهوة، فهو أفضل من الملائكة، أمّا لو عكس الأمر، وجعل العقل أسيراً للشهوة، والشهوة أميراً للعقل، فهو أضلّ من الأنعام. عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**»(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٢). وقال أيضاً: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٣).

فتحصّل أنّ أُمّهات المحاسن الأخلاقية وأُصولها الأساسية هي: الحكمة، والعفّة، والشجاعة، والعدالة. ولكلّ منها فروع ناشئة منها، راجعة بحسب التحليل إليها.

---

(١) **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، تأليف الفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، المتوفّى سنة ١١٠٤هـ: ج١٥ ص٢٠٩، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الفرقان: ٤٤.

الفضائل التي تحت الحكمة

- **الذكاء:** وهو سرعة إنتاج القضايا وسهولة استخراجها؛ لكثرة مزاولة المقدّمات وصيرورة ذلك ملكة.
- **سرعة الفهم:** هو حركة النفس من الملزومات إلى اللوازم بلا توقّف.
- **صفاء الذهن:** هو استعداد النفس لاستخراج المطالب بلا اضطراب.
- **سهولة التعلّم:** أن تكون للنفس حدّة في اكتساب المطالب بلا ممانعة الخواطر المتفرّقة، بحيث تكون بكلّيتها متوجّهة إليها.
- **التحفّظ:** هو أن تكون صور الأُمور المدركة بالعقل بقوّة التفكّر والتخيّل مستحصلة بأقلّ نظر.

الفضائل التي تحت العفّة

- **الحياء:** تغيّر يحصل عند استشعار ارتكاب القبيح احترازاً عن استحقاق المذمّة.
- **الدعة:** هو سكون النفس عند حركة الشهوات.
- **الصبر:** هو مقاومة النفس الهوى، لئلاّ تنقاد لقبائح اللذّات.
- **السخاء:** هو التوسّط في الإعطاء، وهو أن ينفق الأموال في ما

ينبغي على مقدار ما ينبغي وعلى ما ينبغي، وتحت السخاء خاصّة أنواع كثيرة نحصيها في ما بعد لكثرة الحاجة إليها.

- **القناعة:** هي التساهل في المأكل والمشرب والزينة.
- **الدماثة:** حسن انقياد النفس لما يجمل وتسرّعها إلى الجميل.
- **الانتظام:** حال للنفس تقودها إلى حسن تقدير الأُمور وترتيبها كما ينبغي .
- **حسن الهدي:** محبّة تكميل النفس بالزينة الحسنة.
- **الورع:** هو لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال النفس.
- **الوقار:** هو كون النفس عند توجّهها إلى المطالب خالية عن الاضطراب.
- **العفو:** هو أن يسهل على النفس ترك المكافاة.
- **حسن القضاء:** هو أن تكون الحقوق المتوجّهة عليه يؤدّيها على وجه لا يكون فيها منّة أو ندامة.
- **المكافأة:** هو أن يقابل الإحسان الذي صنع به بمثله أو بأكثر منه.
- **التوكّل:** هو أن تكون الأفعال المتعلّقة بالقدر والكفاية البشرية، يفوّضها إلى الله تعالى، بحيث يعلم أنّه المتصرّف فيها والفاعل، ولا يطلب زيادة ولا نقصاناً ولا تعجيلاً ولا تأخيراً.

الفضائل التي تحت الشجاعة

• **كبر النفس**: هو الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل الكرائه والهوان، فصاحبه أبداً يؤهّل نفسه للأمور العظام حتّى مع استخفافه لها.

• **النجدة**: هي ثقة النفس عند المخاوف حتّى لا يخامرها جزع.

• **علوّ الهمّة**: هو أن لا تكون النفس مستبشرة بالسعادة الدنيوية ولا متضجّرة بها، غير خائفة من الموت.

• **ثبات الهمّة**: هو أن تكون للإنسان قوّة مقاومة الآلام والشدائد.

• **الحلم**: هو فضيلة للنفس تُكسبها الطمأنينة، فلا تكون شغبة ولا يحرّكها الغضب بسهولة وسرعة.

• **السكون**: نعني به عدم الطيش، فهو إمّا عند الخصومات، وإمّا في الحروب التي يذبّ بها عن الحريم، أو عن الشريعة، وهي قوّة للنفس تفسّر حركتها في هذه الأحوال لشدّتها.

• **الصبر**: والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي في العفّة، أنّ هذا يكون في الأُمور الهائلة، وذلك يكون في الشهوات الهائجة.

• **التواضع**: هو أن لا تجعل لنفسك مرتبة على من هو دونك في الجاه علوّاً .

الفضائل التي تحت السخاء

- **الكرم**: هو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأُمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي، وباقي شرائط السخاء التي ذكرناها.
- **الإيثار**: فضيلة للنفس بها يكفّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصّه حتّى يبذله لمن يستحقّه.
- **النبل**: سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة.
- **السماحة**: بذل بعض ما لا يجب.
- **المسامحة**: ترك بعض ما يجب[1].

ممّا تقدّم في بيان أُمّهات الفضائل الأخلاقية، وما يتفرّع عليها إجمالاً، يمكن الوقوف على الأطراف التي هي رذائل وشرور، وذلك من خلال قاعدة (تعرف الأشياء بأضدادها) وربما وجدت لها أسماء بحسب اللغة، وربما لم توجد. ولا يعسر عليك فهم معانيها والوقوف عليها.

ثمّ إنّ ما ذكر من الأوساط وقوانينها، والأطراف وما يليق بها، إنّما هو بحسب القواعد العامّة والأُصول الكلّية، لا ما يجب على شخص شخص، فإنّ هذا غير ممكن، لاختلاف أقدار الناس وطبقاتهم وهممهم وغيرها في ذلك.

---

(١) يمكن مراجعة هذه الفضائل وتوضيحها في: **تهذيب الأخلاق**، مسكويه ص٤٠ ـ ص٤٥، وكذلك آداب النفس: ص٨ ـ ص١٠.

﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّار ابْتِغَاءَ حِلْيَة أَوْ مَتَاع زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

(١) الرعد: ١٧ ـ ١٨.

البحث الثاني

قبول الأخلاق للتغيير

من الأُمور التي وقع البحث فيها: هل الأخلاق الإنسانية قابلة للإزالة والتغيير أم لا؟ والحديث في ذلك يقع في مقامين:

الأوّل: هل الأخلاق الإنسانية قابلة للتغيير أساساً من حال إلى حال، أم أنّ ذلك ممتنع عقلاً؟ ببيان آخر: هل الأخلاق، هي ذاتيات باب الكلّيات كالجنس والفصل، فلا تكون قابلة للتغيير والتبديل البتة، أم أنّها ليست كذلك، فتكون قابلة للتغيير من خلال مسالك وطرق تأتي الإشارة إليها لاحقاً.

الثاني: بعد أن ثبت في المقام الأوّل، أنّها قابلة للتغيير، يقع الكلام في: هل ذلك بالنسبة إلى كلّ خلق، ولجميع الناس على درجة واحدة، أم أنّ المسألة تختلف من خلق إلى آخر ومن إنسان إلى آخر؟

المقام الأوّل: إمكانية تغيير الأخلاق

إنّ دعوى عدم قبول الأخلاق الإنسانية للتغيير مطلقاً وبنحو السالبة الكلّية، أمر لا توافق عليه الآيات القرآنية والروايات الواردة في المقام، مضافاً إلى التجربة الخارجية.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. «الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية، والخيبة خلافه، والزكاة نموّ النبات نمواً صالحاً ذا بركة. والتزكية إنماؤه كذلك، والتدسّي ـ وهو الدسّ بقلب إحدى السينين ياءً ـ إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة التزكية: الإنماء على خلاف ما يقتضيه طبعها وركبت عليه نفسها»[1].

تؤكّد هاتان الآيتان حقيقة مهمة وهي: إنّ بإمكان الإنسان أن ينمّي نفسه ويكمّلها من خلال طلبه للأخلاق الحسنة، وإلاّ لو لم يكن ذلك مقدوراً له، لما أشارت الآيتان إلى فلاح من يزكّي نفسه وخيبة من يدسّها. قال الآلوسي في تفسيره قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا...﴾، حيث جعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى والتدسية بالفجور، لأنّ الإسناد يقتضي قيام المسند، ويكفي فيه المدخلية المذكورة، ولا يتوقّف صحّة الإسناد حقيقة إلى العبد على كون فعله الإيجاد، فالاستدلال بهذا الإسناد على كونه متمكّناً من اختيار ما شاء

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٩٨.

من الفجور والتقوى، وإيجاده إيّاه بقدرة مستقلّة فيه على خلاف ما يقوله الجماعة ليس بشيء»[١].

وهذه المسألة ترتبط ببحث الجبر والاختيار التي وقفنا عليها مفصّلاً في كتاب «التوحيد»[٢].

أمّا الروايات فقد تقدّمت الإشارة إلى جملة منها، كقوله صلى الله عليه وآله: «**بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**» وقوله: «**تخلّقوا بأخلاق الله**» وغيرها، فهي خير شاهد على إمكان الإزالة والتغيير، وكذلك التجربة فهي واضحة لا غبار عليها.

قال الغزالي: «وكيف ينكر هذا ـ أي تغيّر الخلق ـ في حقّ الآدمي؛ وتغيير خلق البهيمة ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأُنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدّب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكلّ ذلك تغيير الأخلاق. والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب بل

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلاّمة أبي الفضل شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي (المتوفّى ١٢٧٠هـ) مفتي بغداد ومرجع أهل العراق: ج١٦ ص٢٥٩، قرأه وصحّحه: محمّد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**: ج٢ ص٣٨ ـ ١٣٥، تقريراً لدروس السيّد كمال الحيدري، جواد علي كسّار، دار فراقد.

أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وبالجملة كلّ ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله، وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوّة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإنّ النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلاّ أنّها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثّرة بالاختيار حتّى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلّية حتّى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أُمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى»[١].

المقام الثاني: اختلاف درجات الناس في قبول التغيّر

نعم ليس جميع الناس على درجة واحدة، بل يختلفون شدّة وضعفاً؛ قال أرسطاطاليس: «يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلاّ أنّ هذا ليس كلّياً ، فإنّه ربما أثّر في بعضهم بالزوال، وفي بعضهم بالتقليل، وربما لم يؤثّر أصلاً»[٢]. والسبب في ذلك «أنّ للمزاج مدخلية تامّة في الصفات، فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعدّ لبعض الأخلاق، وبعضها مقتض لخلافه، فإنّا نقطع بأنّ بعض الأشخاص

(١) **إحياء علوم الدين** للغزالي: ج٣ ص٥٦.
(٢) نقلاً من **جامع السعادات** للنراقي: ج١ ص٥٨.

بحسب جبلّته ولو خُلّي عن الأسباب الخارجية، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب، ويضحك بأدنى تعجّب، وبعضهم بخلاف ذلك»[١].

لذا قال الشيخ الرئيس ابن سينا في بعض رسائله: «قد تبيّن في العلوم الطبيعية، أنّ الأخلاق والعادات تابعة لمزاج البدن[٢]، حتّى أنّ من استولى البلغم على مزاجه استولى عليه السكون والوقار والحلم، ومن استولت الصفراء على مزاجه استولى عليه الغضب، ومن استولت عليه السوداء استولى عليه سوء الخُلُق، ويتبع كلّ واحد منها أخلاق أُخر لا نذكرها هنا، فلا شكّ أنّ المزاج قابل للتبديل، فتكون الأخلاق أيضاً قابلة للتبديل بواسطة تبديل المزاج. فيعين على ذلك استعمال الرياضة المذكورة في كتب الأخلاق، فمهما اعتدل مزاج الإنسان تهذّبت أخلاقه بسهولة، فلاعتدال مزاجه أثر في ذلك... وكلّما كان المزاج أقرب إلى الاعتدال، كان الشخص أكثر استعداداً لقبول

(١) **جامع السعادات**: ج١ ص٥٣.

(٢) راجع في بيان المراد من «المزاج» اصطلاحاً **شرح المصطلحات الفلسفية**، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية ص٣٦٦، قال: «هو عبارة عن كيفية من جنس أوائل الملموسات، أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة». وكذلك: **موسوعة كشّاف إصطلاحات الفنون والعلوم**، للباحث محمّد علي التهانوي تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النصّ الفارسي إلى العربية: د. عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي: ج٢ ص١٥١٨.

الملكات الفاضلة العلمية والعملية»[١].

ولست الآن بصدد تحقيق الأصول الموضوعة التي تقوم عليها هذه النتائج، إنّما المهمّ أنّ كلام المحقّقين في هذا الفن أنّ الناس ليسوا على درجة واحدة في هذا المجال. وهذا ما أشارت إليه بعض الآيات وكثير من الروايات؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٢].

«فإنّ الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات، الذي هو بمنزلة الرحمة السماوية، والمطر النازل من السحاب على ساحة الأرض، خال في نفسه عن الصور والأقدار، وإنّما يتقدّر من ناحية الأشياء نفسها، كماء المطر الذي يحتمل من القدر والصورة ما يطرأ

(١) **أربع رسائل للشيخ أبي على ابن سينا**، بتحقيق الأهواني، ص١٩٧، الطبعة الأولى، مصر سنة ١٣٧١هـ نقلاً عن **عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون**، تأليف: آية الله حسن حسن زاده آملي: ص٢٩٠، العين: ١٢، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران: ١٣٧١هـ ش.

(٢) الرعد: ١٧ ـ ١٨.

عليه من ناحية قوالب الأودية المختلفة في الأقدار والصور، فإنّما تنال الأشياء من العطية الإلهية بقدر قابليتها واستعداداتها، وتختلف باختلاف الاستعدادات والظروف والأوعية. وهذا أصل عظيم يدلّ عليه أو يلوّح إليه آيات كثيرة من كلامه تعالى»[١].

وكذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[٢].

أخبار الطينة

وأيضاً ما رواه أبو موسى الأشعري قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيّب**»[٣].

والرواية الأخيرة إشارة إلى أخبار الطينة «التي رواها العلماء الأعلام في جوامعهم العظام بأسانيد عديدة وطرق سديدة، ولا يبعد أن

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١١ ص٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في **المناقب**، باب مناقب قريش، ومسلم في الإمارة، باب: الناس تبع لقريش برقم ١٨١٨، نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٣٤.

(٣) أخرجه أبو داود في السنّة باب في القدر برقم ٤٦٩٣، وأحمد في المسند، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح . نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٣٦.

تكون من المتواترات معنىً، فلا معنى لطرحها وردّها»[١].

منها: عن حبّة العرني عن علي عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم** عليه السلام **من أديم الأرض، فمنه السباخ** (ما لم يحرث ولم يعمّر) **ومنه الملح ومنه الطيّب، فكذلك في ذرّيته الصالح والطالح**»[٢].

ومنها: عن أمير المؤمنين عليه السلام في خبر طويل: **قال الله تبارك وتعالى للملائكة** : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، **قال: وكان ذلك من الله تقدمة في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجاً منه عليهم، قال: فاغترف ربّنا تبارك وتعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات – وكلتا يديه يمين – فصلصلها في كفّه فجمدت فقال لها: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمّة المهتدين والدعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم الدين... ثمّ اغترف غرفة أخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق الجبّارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشياطين والدعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم... وشرط في ذلك البداء، ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء، ثمّ خلط الماءين**

---

(١) **مصابيح الأنوار**، تأليف السيّد عبد الله شبّر: ج١ ص١١، منشورات مكتبة بصيرتي، إيران ـ قم.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، تأليف: العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسي قدس سره: ج٥ ص٢٣٩، الحديث: ٢٠ مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

جميعاً في كفّه، فصلصلهما ثمّ كفأهما قدّام عرشه، وهما سلالة من طين»[١].

إشكالية الجبر في الفعل الإنساني

لكن قد يقال: إنّ المستفاد من ظاهر جملة من هذه الأخبار هو الجبر وعدم الاختيار، وهو مصادم للمجمع عليه بين أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام من أنّه لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين.

وما ينبغي أن يقال في الجواب عن ذلك إجمالاً ـ وإن كان البحث يستلزم وضع رسالة مستقلّة نرجو أن نوفّق له ـ: إنّ من بديهيات العقيدة الإسلامية على مستوى البحث العقلي والنقلي، هو أنّ الله تعالى عالم بجميع الأشياء، كلّياتها وجزئياتها وكلّ تفاصيلها، لا يغيب عنه تعالى شيء منها، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، علماً مطلقاً غير متناه، قبل خلقه لها وإيجادها وبعده.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْن وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآن وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَل إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَال ذَرَّة فِي الأرْض وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلاَّ فِي كِتَاب مُبِين﴾[٢] وقال: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْء عِنْدَهُ بِمِقْدَار * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٣٧، الحديث: ١٦.
(٢) يونس: ٦١.

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[١] وقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢] إلى غير ذلك من نصوص الكتاب العزيز.

كما أكّدت نصوص السنّة هذا المضمون القرآني أيضاً منها:

● صحيح أيّوب بن نوح أنّه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عزّ وجلّ: أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتّى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق وما كوّن عندما كوّن؟ فوقّع بخطّه عليه السلام: **لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء**»[٣].

● صحيح محمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: «**كان الله ولا شيء غيره، ولم يزل الله عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه**»[٤].

● صحيح منصور بن حازم قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله عزّوجلّ؟ قال: **لا بل**

(١) الرعد: ٨ ـ ١٠.
(٢) سبأ: ٣.
(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٠٧، باب صفات الذات، الحديث: ٤.
(٤) المصدر السابق: الحديث: ٢.

كان في علمه قبل أن ينشئ السموات والأرض»[١].

● ما روي عن عبد الله بن مسكان قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى: أكان يعلم بالمكان قبل أن يخلق المكان، أم علمه عندما خلقه وبعدما خلقه؟ فقال عليه السلام: **تعالى الله بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه، كعلمه به بعدما كوّنه وكذلك علمه بجميع الأشياء كعلمه بالمكان»**[٢].

● حديث الحسين بن بشّار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: سألته: أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون، أو لا يعلم إلاّ ما يكون؟ فقال عليه السلام: **إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال عزّ وجلّ:** ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣] **وقال لأهل النار:** ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٤] **فقد علم عزّ وجلّ أنّه لو ردّهم لعادوا لما نهوا عنه، وعندما قال الملائكة:** ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٥] **فلم يزل الله عزّ وجلّ علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربّنا وتعالى علواً**

(١) **التوحيد**، الصدوق: ص١٣١، باب العلم: الحديث: ٦.
(٢) المصدر السابق: ص١٣٢، الحديث: ٩.
(٣) الجاثية: ٢٩.
(٤) الأنعام: ٢٨.
(٥) البقرة: ٣٠.

كبيراً، خلق الأشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء كذلك، لم يزل ربّنا عليماً سميعاً بصيراً»[١].

● حديث الفتح بن زيد الجرجاني عن الإمام الرضا عليه السلام «قلت: جعلت فداك قد بقيت مسألة، قال: **هات لله أبوك**. قلت: يعلم القديم الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ قال: **ويحك إنّ مسائلك لصعبة! أما سمعت الله يقول**: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢] **وقوله**: ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٣] **وقال يحكي قول أهل النار**: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٤] **وقال**: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[٥] **فقد علم الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون**. فقمت لأُقبّل يده ورجله فأدنى رأسه، فقبّلت وجهه ورأسه، وخرجت وبي من السرور والفرح ما أعجز عن وصفه لما تبيّنت من الخير والحظّ»[٦].

هذه النصوص وكثير غيرها تؤكّد حقيقة علم الله تعالى بالأشياء علماً أزلياً قبل خلقه لها وإيجاده إيّاها، بل يعلم سبحانه ممتنع الوجود أن لو كان وجد كيف يكون، مثل شريك الباري تبارك وتعالى.

(١) **التوحيد**، الصدوق: ص١٣٢، باب العلم، الحديث: ٨.
(٢) الأنبياء: ٢٢.
(٣) المؤمنون: ٩١.
(٤) فاطر: ٣٧.
(٥) الأنعام: ٢٨.
(٦) **التوحيد**، للصدوق: ص٦٤، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث: ١٨.

فإذا علم الله سبحانه – وعلمه أزليّ قبل خلق الأشياء – من عبد أنّه لا يريد سوى الطاعة والعبادة والطهارة من الرجس والدنس، فلا محالة أن يعطيه ذلك ويهيئ له جميع الأسباب كما هو مقتضى وعده وما كتبه على نفسه، ولابدّ أن تتعلّق إرادته التكوينية بذلك، تمكيناً للعبد من تحقيق ما يريده، ولا يعني هذا أيّ جبر لذلك الإنسان في تحقيق مراده، بل يبقى العبد مختاراً مريداً، قد استجابت المشيئة الإلهية لما اختاره وأراده.

وبالعكس فيما لو علم من شخص آخر أنّه لا يريد سوى التمرّد والجحود والكفر والعصيان، والخروج عن حبل الطاعة، فلا يمنعه من ذلك، بل يعطيه كلّ ما يريد تحقيقاً لرغباته، كما أنّ الإرادة الإلهية التكوينية أيضاً تتعلّق بتلكم الأفعال، فيصحّ أن يقال: إنّما يريد الله أن يكون فلان هكذا... وهذا أيضاً لا يعني الجبر على المعصية، بل شاء إنسانٌ باختياره هو وإرادته أن لا يستجيب لأوامر الله تعالى، فشاءت إرادة الله تحقيق ما اختاره ذلك الإنسان.

ومن ثمّ يتّضح لنا أنّ إرادة الله التكوينية التي لا تتخلّف عن المراد، لا تتنافى مع اختيار الإنسان، وإن كانت جميع أفعال الإنسان مخلوقة لله تعالى، لكنّها مخلوقة وفق ما يريده الإنسان ويختاره.

وهذا المعنى هو الذي ذكره «أكثر الأصحاب وعوّلوا عليه في هذا الباب، وهو أنّ ذلك ـ أي أخبار الطينة المتقدّمة ـ منزّل على العلم الإلهي، فإنّه تعالى لمّا خلق الأرواح كلّها قابلة للخير والشرّ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وَإمَّا كَفُوراً﴾[١] وقادرة على فعلهما ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَء وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[٢] وعلم أنّ بعضها يعود إلى الخير المحض وهو الإيمان، وبعضها يعود إلى الشرّ المحضّ وهو الكفر باختيارها، عاملها هذه المعاملة كالخلق من الطينة الطيّبة أو الخبيثة، فحيث علم الله من زيد أنّه يختار الخير والإيمان البتة، ولو لم يخلق من طينة طيّبة، خلقه منها، ولمّا علم من عمرو أنّه يختار الشرّ والكفر البتة، خلقه من طينة خبيثة، لطفاً بالأوّل وتسهيلاً عليه وإكراماً له ، لما علم من حسن نيّته وعمله، وبالعكس في الثاني ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٣].

وعلم الله ليس بعلّة لصدور الأفعال، وهذا معنىً جيّد تنطبق عليه أكثر أخبار الباب، ويستنبط من أخبارهم عليهم السلام[٤].

والآيات والروايات شاهدة على هذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿إنَّ شَرَّ

(١) الإنسان: ٣.

(٢) الإسراء: ١٨ ـ ٢٠.

(٣) الليل: ٥ ـ ١٠.

(٤) **مصابيح الأنوار**، للسيّد عبد الله شبّر: ج١ ص١٣.

الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[١] بمعنى «أنّ الله إنّما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلا يسمعون كلمة الحقّ ولا ينطقون بكلمة الحقّ، وبالجملة حرمهم من نعمة السمع والقبول، لأنّه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به، ولو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفّقهم للسمع والقبول، ولو أنّه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم، بل تولّوا عن الحقّ وهم معرضون»[٢]. لذا ورد في الصحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**... إنّ الله لم يجبر أحداً، ولا أراد - إرادة حتم - الكفر من أحد، ولكن حين كفر كان في إرادة الله أن يكفر، وهم في إرادة الله وفي علمه أن لا يصيروا إلى شيء من الخير.**

قلت: أراد منهم أن يكفروا؟

قال: **ليس هكذا أقول، ولكنّي أقول: علم أنّهم سيكفرون فأراد الكفر لعلمه فيهم، وليست هي إرادة حتم، إنّما هي إرادة اختيار**»[٣].

وبذلك يتّضح عدم تمامية ما ذكره الرازي في ذيل هذه الآية، مستدلاً بعلم الله الأزلي لإثبات الجبر وعدم الاختيار.

ومن الروايات الصريحة الدالّة على أنّ منشأ خلق بعض الناس من

(١) الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٩ ص٤٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٦٢، كتاب التوحيد، باب الاستطاعة، الحديث ١٣.

طينة طيّبة وبعضهم من طينة خبيثة، هو علم الله الأزلي بما هم صائرون إليه باختيارهم وإرادتهم؛ قال الإمام أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «**إنّ الله وتعالى لم يزل عالماً قديماً، خلق الأشياء لا من شيء، ومن زعم أنّ الله عزّ وجلّ خلق الأشياء من شيء فقد كفر، لأنّه لو كان ذلك الشيء الذي خلق منه الأشياء قديماً معه في أزليته وهويّته كان ذلك أزلياً، بل خلق الله عزّ وجلّ الأشياء كلّها لا من شيء، فكان ممّا خلق الله عزّ وجلّ أرضاً طيّبة، ثمّ فجّر منها ماءً عذباً زلالاً... ثمّ خلق بعد ذلك أرضاً سبخة** (أي أرضاً ذات ملح) **خبيثة منتنة، ثمّ فجّر منها ماءً أُجاجاً، آسناً مالحاً....**

قلت: يا ابن رسول الله فما صنع بالطينتين؟

قال عليه السلام: **مزج بينهما بالماء الأوّل والماء الثاني، ثمّ عركها عرك الأديم، ثمّ أخذ من ذلك قبضة فقال: هذه إلى الجنّة ولا أُبالي، وأخذ قبضة أُخرى وقال: هذه إلى النار ولا أُبالي، ثمّ خلط بينهما فوقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته، ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ المؤمن وطينته... ثمّ إذا عرضت هذه الأعمال كلّها على الله عزّ وجلّ قال: أنا عدل لا أجور، ومنصف لا أظلم، وحَكَم لا أحيف ولا أشطط** (شطط الرجل: أفرط وتباعد عن الحقّ)**... فإنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا، عالم السرّ وأخفى، وأنا المطّلع على قلوب عبادي، لا أحيف ولا أظلم وأُلزم أحداً إلاّ ما عرفته منه قبل أن أخلقه**»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٣٠.

وبما تقدّم يمكن فهم أصل مهمّ في معارف الإمامة الإلهية، حيث ثبت «أنّ الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة واعتدال الخلقة، فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقّادة وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة وقلوب سليمة، فنالوا بمجرّد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب، بل أعلى وأرقى؛ لطهارة داخلهم من التلوّث بألواث الموانع والمزاحمات، والظاهر أنّ هؤلاء هم المخلَصون لله في عرف القرآن. وهؤلاء هم الأنبياء والأئمّة، وقد نصّ القرآن بأنّ الله اجتباهم أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته؛ قال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم﴾[1] وقال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَج﴾ (الحجّ: ٧٨)[2].

والروايات الواردة في المقام تؤكّد أنّ منشأ هذا الاجتباء والاصطفاء الإلهي، أنّه علِم منهم أنّهم لا يريدون إلاّ الطاعة والعبودية له تعالى.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه عن أسئلة بعض الزنادقة الذي سأله مسائل كثيرة:

قال: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

قال عليه السلام: **رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها**

(١) الأنعام: ٨٧.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١١ ص١٦٢.

إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف.

قال: أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتّى يروه ويعرفوه فيُعبَد على يقين؟

قال عليه السلام: ليس للمحال جواب.

قال: فما بال ولد آدم فيهم شريف ووضيع؟

قال عليه السلام: الشريف: المطيع، والوضيع: العاصي.

قال: أليس فيهم فاضل ومفضول؟

قال عليه السلام: إنّما يتفاضلون بالتقوى.

قال: فتقول: إنّ ولد آدم كلّهم سواء في الأصل لا يتفاضلون إلاّ بالتقوى؟

قال عليه السلام: نعم إنّي وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم والأُمّ حواء، خلقهم إله واحد وهم عبيده، إنّ الله عزّ وجلّ اختار من ولد آدم أُناساً طهّر ميلادهم ، وطيّب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لا لأمر استحقّوه من الله عزّ وجلّ، ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنّهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب»[(١)].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠ ص١٧٠.

إشكال وجواب

من هنا يتّضح بطلان الزعم (أن حمل الإرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١] على الإرادة التكوينية ينافي اختيار من تعلّقت الإرادة الإلهية بتطهيرهم من كلّ رجس)؛ بدعوى: (أنّ لازم ذلك هو الجبر في إذهاب الرجس والتطهير، إذ يستحيل في التكوينية من الإرادة تخلّف التحقّق الخارجي للفعل المراد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢]، وعلى فرض الجبر ينتفي كل من الثواب والعقاب، كما أجاب الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله السائل: أخبرني عن الله عزّ وجلّ كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحّدين، وكان على ذلك قادراً؟ قال عليه السلام: «**لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنّ الطاعة إذاً ما كانت فعلهم، ولم تكن جنّة ولا نار**»[٣]).

لأنّ الإرادة في الآية مع كونها تكوينية لا يتخلّف المراد عنها، منسجمة تماماً مع الاختيار ولا تنافيه، لأنّها تشير إلى علمه تعالى الأزلي، بهؤلاء الصفوة أنهم لا يريدون سوى الطهارة من الرجس، واستجابت إرادته سبحانه لإرادتهم بما يقتضيه وعده، وما كتبه هو على نفسه، بناءً على ذلك يكون مفاد الآية: «إنّ الله عزّ وجلّ لمّا علم

(١) الأحزاب: ٣٣.
(٢) يس: ٨٢.
(٣) **بحار الأنوار**: ج١٠ ص١٧٠.

أنّ إرادتهم تجري دائماً على وفق ما شرّعه لهم من أحكام، بحكم ما زُوّدوا به من إمكانات ذاتية ومواهب مكتسبة، نتيجة تربيتهم على وفق مبادئ الإسلام، تربية حوّلتهم في سلوكهم إلى إسلام متجسّد، ثمّ بحكم ما كانت لديهم من القدرات على إعمال إرادتهم وفق أحكامه التي استوعبوها علماً وخبرة، فقد صحّ له الإخبار عن ذاته المقدّسة بأنّه لا يريد لهم ـ بإرادته التكوينية ـ إلاّ إذهاب الرجس عنهم، لأنّه لا يفيض الوجود إلاّ على هذا النوع من أفعالهم، ما داموا هم لا يريدون لأنفسهم إلاّ إذهاب الرجس والتطهير عنهم»[١].

وبهذا يتّضح معنى الاصطفاء والاختيار من الله تعالى لبعض عبيده، في حمل أعباء الرسالة، وإعطائهم الإمكانيات العالية، من العلم العاصم وغيره، فإنّ جميع ذلك يرجع إلى إرادتهم واختيارهم، ضمن الحكمة الإلهية في إعطاء كلّ مستعدّ بمقدار استعداده.

فقد علم الله تعالى من الأزل وقبل الخلق، ما سيكون عليه هؤلاء البررة من الطاعة والطهارة، وتمحّض إرادتهم فيما يريده الله تعالى، فأعطاهم ما يتمكّنون به من توظيف إرادتهم في الطاعات والعبادات فحسب، ولو منعهم ذلك كان خلفاً في وعده جلّ وعلا، وبالعكس لو كان قد أعطى تلكم المواهب مَن علم منه عدم الالتزام بمدلولها، لكان ذلك عبثاً منه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً»[٢].

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**: ص١٥١، دار الأندلس، بيروت، ط. ٢: عام ١٩٩٧.
(٢) **العصمة**: ص١٧٦.

جمع بين رأيين

ممّا تقدّم يتّضح أنّه يمكن أن يجمع بين كلام الحكيمين أرسطو وأفلاطون بأن يحمل كلام أرسطو، حيث قال في كتاب «نيقوماخيا»: «إنّ الأخلاق كلّها عادات تتغيّر، وإنّه ليس شيء منها بالطبع، وإنّ الإنسان يمكنه أن ينتقل من كلّ واحد منها إلى غيره بالاعتياد والدربة»[١] على المقام الأوّل من البحث، وهو أصل قابلية الأخلاق الإنسانية للتغيير، بغضّ النظر عن كونه سهلاً أو صعباً. ويحمل كلام أفلاطون القائل في كتاب «السياسة» وفي كتاب «بوليطيا» خاصّة «بأنّ الطبع يغلب العادة، وأنّ الكهول حيثما طُبعوا على خُلق ما، يعسر زوالهم عنه، وأنّهم متى قصدوا زوال ذلك الخُلُق عنهم، ازدادوا فيه تمادياً»[١] على المقام الثاني من البحث.

هذا ما ذكره الفارابي في الجمع بين الكلامين حيث قال: «وليس يشكّ أحد ممّن يسمع هاتين المقالتين أنّ بين الحكيمين في أمر الأخلاق خلافاً، وليس الأمر في الحقيقة كما ظنّوا، لأنّ أرسطو يرى أنّ كلّ خلق إذا نظر إليه مطلقاً (أي في نفسه) علم أنّه ينتقل ويتغيّر ولو بعسر، وليس شيء من الأخلاق ممتنعاً عن التغيّر والتنقّل، فإنّ الطفل الذي نفسه تُعدّ بالقوّة، ليس فيه شيء من الأخلاق بالفعل، ولا من الصفات النفسانية. وبالجملة فإنّ ما كان فيه بالقوّة، ففيه تهيّؤ لقبول

(١) **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين**، لأبي نصر الفارابي، ص٩٥، قدّم له وعلّق عليه: الدكتور البيرنصري نادر من أساتذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

الشيء وضدّه، ومهما اكتسب أحد الضدّين، يمكن زواله عن ذلك الضدّ المكتسب إلى ضدّه، إلى أن تنقص البنية ويلحقه نوع من الفساد....

وأمّا أفلاطون، فإنّه ينظر في أنواع السياسات، وأيّها أنفع وأيّها أشدّ ضرراً، فينظر في أحوال قابلي السياسات وفاعليها، وأيّها أسهل قبولاً، وأيّها أعسر، ولعمري إنّ من نشأ على خلق من الأخلاق، واتّفقت له تقويته، يمكن بها من نفسه على خلق من الأخلاق، فإنّ زوال ذلك يعسر جدّاً. والعسر غير الممتنع.

وليس ينكر أرسطو أنّ بعض الناس يمكن فيه التنقّل من خلق إلى خلق أسهل، وفي بعضهم أعسر، على ما صرّح به في كتابه المعروف بـ «نيقوماخيا» الصغير، فإنّه عدّ أسباب عسر التنقّل من خُلق إلى خُلق، وأسباب السهولة، كم هي، وما هي، وعلى أي جهة كلّ واحد من تلك الأسباب، وما العلامات، وما الموانع.

فمن تأمّل في تلك الأقاويل حقّ التأمّل، وأعطى كلّ شيء حقّه، عرف أن لا خلاف بين الحكيمين في الحقيقة، وإنّما ذلك شيء يخيّله الظاهر من الأقاويل، عندما ينظر إلى واحد واحد منها على انفراد، من غير أن يتأمّل المكان الذي فيه ذلك القول، ومرتبة العلم الذي هو منه»[1] وقد تقدّم سابقاً قول أرسطو «يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلاّ أنّ هذا ليس كلّياً، فإنّه ربما أثّر في بعضهم بالزوال، وفي

(١) **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين**، لأبي نصر الفارابي، ص٩٥.

بعضهم بالتقليل، وربما لم يؤثّر أصلاً».

نعم يبقى الكلام فيما هو مراد أفلاطون من «الطبع» في قوله «بأنّ الطبع يغلب العادة» هل المراد من ذلك الصورة النوعية بحسب الاصطلاح، فيكون متعذّر الزوال، أو المراد أنّ الخُلق إذا تمكّن في النفس وصار ملكة راسخة، فإنّه يعسر زواله، وتعسّر الشيء غير تعذّره، لأنّ الأوّل معناه إمكانه ذاتاً، وإن كان صعب الوقوع خارجاً، بخلاف الثاني فإنّ معناه عدم إمكان تحقّقه خارجاً.

لذا قال الفارابي في مقام تبيين كلام أفلاطون: «وهاهنا أصل عظيم الغناء في تصوّر العلوم، وخصوصاً في أمثال هذه الموانع، وهو أنّه كما المادّة، مهما كانت متصوّرة بصورة ما ثمّ حدثت فيها صورة أُخرى، صارت مع صورتها جميعاً مادّة للصورة الثالثة الحادثة فيها، كالخشب الذي له صورة، يباين بها سائر الأجسام ، ثمّ يجعل منها ألواحاً، ثمّ يجعل من الألواح سريراً، فإنّ صورة السرير، من حيث حدثت في الألواح مادّة لها، وفي الألواح التي هي مادّة بالإضافة إلى صورة السرير، صور كثيرة، مثل الصور اللوحية والصور الخشبية والصور النباتية وغيرها من الصور القديمة.

كذلك مهما كانت النفس المتخلّقة ببعض الأخلاق ثمّ تكلّفت اكتساب خُلق جديد، كان الأخلاق التي معها كالأشياء الطبيعية لها، وهذه المكتسبة الجديدة اعتيادية، ثمّ إن مرّت على هذه ودامت على اكتساب خُلق ثالث، صارت تلك بمنزلة الطبيعية، وذلك بالإضافة إلى

هذه الجديدة المكتسبة.

فمهما رأيت أفلاطون أو غيره يقول: إنّ من الأخلاق ما هي طبيعية، ومنها ما هي مكتسبة، فاعلم ما ذكرناه، وتفهّمه من فحوى كلامهم، لئلاّ يشكل عليك الأمر، فتظنّ أنّ من الأخلاق ما هي طبيعية بالحقيقة، لا يمكن زوالها، فإنّ ذلك شنيع جدّاً، ونفس اللفظ يناقض معناه إذا تأمّل فيه جدّاً»[١].

ممّا سلف يتّضح مراد النراقي في «جامع السعادات» حيث قال: «اختلف الأوائل في إمكان إزالة الأخلاق وعدمه، وثالث الأقوال أنّ بعضها طبيعي يمتنع زواله، وبعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله».

إلى أن قال: «فالحقّ القول بالتفصيل، يعني قبول بعض الأخلاق بل أكثرها بالنسبة إلى الأكثر التبديل؛ للحسّ والعيان، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه، ولإمكان تغيّر خلق البهائم... والتصفّح يعطي اختلاف الأشخاص والأخلاق في الإزالة والاتّصاف بالضدّ، بالإمكان والتعذّر والسهولة والتعسّر، وبالتقليل والرفع بالمرّة، ولذا لو تصفّحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة، ويشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله: **اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له**»[٢].

---

(١) **الجمع بين رأيي الحكيمين**: ص٩٦.

(٢) **جامع السعادات** للنراقي: ج١ ص٥٥ ـ ٥٨.

البحث الثالث

في طرق إصلاح أخلاق الإنسان

تعرّضنا فيما سبق إلى تعريف علم الأخلاق وأهمّيته، ثمّ بيّنا أنّ الإنسان قادر على أن يختار الأخلاق الحميدة والحسنة وأن يتجنّب الأخلاق الرذيلة والسيئة، وأنّه ليس مجبوراً على إحداهما ولا فاقداً لاختياره تجاههما.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتجنّب مساوئ الأخلاق ورذائلها، وليتحلّى بمحاسنها وفضائلها؛ ليصل إلى تلك الغاية الحميدة التي بُعث من أجلها النبي الخاتم صلّى الله عليه وآله والتي لخّصها بقوله: «**إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[1] وعلى رواية «**إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق**»[2]؟

---

(١) **مستدرك الوسائل**: ج١١ ص ١٨٧ رقم ١٢٧٠١ .

(٢) **مجمع الزوائد**، دار الكتاب العربي: ج٨ ص ٢٣ .

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة مهمّة في المقام، حاصلها: أنّ هناك علاقة وطيدة بين العلم والاعتقاد القلبي من جهة وبين العملِ الذي يصدر من الإنسان من جهة أُخرى. وبتعبير آخر: إنّ هناك نحواً من السنخية بين العلم والعمل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[١] «فالآية الكريمة ترتّب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أنّ العمل يناسبها ويوافقها، فهي بالنسبة إلى العمل كالروح السارية في البدن الذي يمثِّل بأعضائه وأعماله هيئات الروح المعنوية.

وقد تحقّق بالتجارب والبحث العلمي أنّ بين الملكات والأحوال النفسانية وبين الأعمال رابطة خاصّة، فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل والجبان إذا حضرا موقفاً هائلاً، ولا عمل الجواد الكريم والبخيل اللئيم في موارد الإنفاق وهكذا»[٢].

وهذه الحقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة حيث «استدلّ تعالى على كفر اليهود وعلى فساد ضمير المشركين وعلى نفاق المنافقين من المسلمين وعلى إيمان عدّة من الأنبياء والمؤمنين بأعمالهم وأفعالهم في آيات كثيرة يطول ذكرها، فالعمل كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم ويدلّ عليه»[٣]. وعلى هذا الأساس تتّضح هذه الحقيقة القرآنية؛

(١) الإسراء: ٨٤.
(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٣، ص١٨٩.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٦٥.

حيث قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[١].

من هنا نثبت أنّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يصدر منه الظلم، لا لعدم قدرته على ذلك، بل لعدم انسجام ومسانخة الظلم له عزّ وجلّ. وهكذا لا تصدر عن المعصوم عليه السلام معصية، لا لأنّه غير قادر على ارتكابها، بل لعدم انسجامها مع ذاته المطهّرة التي لا يصدر عنها إلاّ العمل الصالح.

ثمّ إنّه كما أنّ كلّ علم واعتقاد قلبي يترشّح منه نوع من العمل يناسب ذلك العلم، كذلك العكس، فإنّ كلّ نوع من العمل صالحاً كان أو طالحاً فإنّه يركّز ويحصّل في النفس نوعاً خاصّاً من العلم والاعتقاد يناسبه وينسجم معه؛ قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٣]. هذا في العمل الصالح، وأمّا في العمل الطالح فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٤] وقال أيضاً: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٥]؛ لذا ورد عن الإمام

(١) الأعراف: ٥٨.
(٢) الحجر: ٩٩.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) الروم: ١٠.
(٥) التوبة: ٧٧.

الصادق عليه السلام: «**لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل**»[١].

وورد أيضاً: «**قليل يدوم خيرٌ من عمل كثير منقطع**»[٢] وما ذلك إلاّ لأنّ أثر القليل الدائم أكثر بكثير من أثر الكثير المنقطع.

فتحصّل أنّ الإنسان إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله وأن يصدر منه العمل الصالح، عليه أوّلاً أن يصحّح اعتقاداته القلبية، وإلاّ إذا كان الاعتقاد فاسداً، فإنّه لا يصدر عنه إلاّ العمل السيئ ﴿وَالَّذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العمل القليل الدائم على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين**»[٣].

وإنّه إذا أراد «اكتساب الأخلاق الفاضلة وإزالة الأخلاق الرذيلة فلا يمكنه تحقيق ذلك إلاّ بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها ومزاولتها والمداومة عليها، حتّى تثبت في النفس من الموارد الجزئية علوم جزئية، وتتراكم وتنتقش في النفس انتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّرها»[٤].

وعلى هذا لو أراد الإنسان أن يكون شجاعاً مثلاً فلابدّ له من اقتحام موارد الشجاعة والاستمرار عليها، لتنتقش في نفسه وتثبت له،

---

(١) **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، مصدر سابق ج١٥ ص١٦٨ الحديث ٦.

(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، دار الحديث، قم، ص ٣٧٠ / ٦٢٤٤ .

(٣) المصدر نفسه: ج١٥، ص٢٠٢، الحديث ٦.

(٤) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١ ص٣٥٤.

وإلاّ لو تكلّم ما تكلّم في مدح الشجاعة وفضلها والجزاء المترتّب عليها ولم يزاولها لما أصبح شجاعاً، لأنّ مثل هذا الإنسان لا يعرف من الشجاعة إلاّ«الاصطلاح» ولا قيمة لذلك بمفرده، ولا لحمل الأسفار دون العمل بها؛ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

مسالك التهذيب

بعد أن اتّضحت هذه المقدّمة، ذكر الأعلام أنّ هناك مسالك ثلاثة لتهذيب الأخلاق الإنسانية وإصلاحها:

المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية

ويبتني هذا المسلك على حثّ الإنسان ودفعه وإيجاد الداعي فيه إلى القيام بالأعمال الحسنة وإلى إصلاح نفسه من خلال الجزاء والمصالح الدنيوية من جاه أو مال أو ثناء أو ذكر حسن، وعلى تحذيره من القيام بالأعمال السيّئة وذمّها من خلال بيان المساوئ والمضارّ الدنيوية المترتّبة عليها.

ولهذا الجزاء المترتّب على العمل خصوصيتان، هما:

(١) الجمعة: ٥.

الأولى: أنّه جزاء دنيوي، ومن الواضح أنّ مثل هـذا الجـزاء مهمـا طال به الزمن فهو منقطع الآخر وإلى زوال.

الثانية: أنّه جزاء اعتباري لا حقيقي، فالثناء الجميل والذكر الحسـن والسمعة الطيبة وما شـاكل ذلـك كلّهـا أمـور اعتباريـة لتنظـيم الحيـاة الاجتماعية ليس إلاّ.

ومع هذا، فلو رجع الإنسان إلـى واقعـه لوجـد الكثيـر منّـا يقـوم بجملة من أعماله ـ شاء أم أبى ـ لأجل هذا الجزاء، بشهادة أنّه لـو لـم يترتّب على أعماله ذلك الثناء الجميل والمدح لشخصـه ولـم يتحقّـق ذلك البُعد له لترك العمـل ولـم يـداوم عليـه، ولا يشـذّ عـن هـذا إلاّ الأوحدي من الناس الذي يقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُـمْ لِوَجْـهِ اللَّـهِ لاَ نُرِيـدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[1].

ولأضرب لذلك مثالاً عن نفسي، فلو درّس أحـد درس الأخـلاق في نفس هذا المكان، وكان من حيـث المسـتوى والإمكانيـة العلميـة بنفس الدرجة التي أنا عليها ـ لكـي لا أجـد فـي ضـعفه مبـرّراً لعـدم ارتياحي ـ أقول: لو جاء مثل هـذا الأسـتاذ وذهـب أكثـر طلاّبنـا إليـه وحضروا درسه ولم يبق معي إلاّ ثلاثة أو أربعة طـلاّب، فهـل أتـأذّى وأشعر بعدم الراحة أم لا؟ لا أدري، فإذا كـان الأمـر مرتبطـاً بتكليـف إلهي وبخدمة الناس، فإنّ هؤلاء قد استبدلوا بي شخصـاً آخـر مثلـي، وجزاهم الله خيراً إذ رفعوا المسؤولية عن عنقـي مـع حصـولي علـى

(١) الدهر: ٩.

الثواب و«**نيّة المرء خير من عمله**»[١]، فهل ينبغي لي أن أتأذّى أم أفرح؟ ومَنْ منّا يفرح؟ فهل نحن نعمل لمعارف أهل البيت عليهم السلام حقّاً أم لأجل السمعة؟ امتحن نفسك، وقف عندها طويلاً، ولا تذهب إلى مكان بعيد، فإنّ الكثير منّا مبتلٍ بهذا وقد لا يلتفت إليه.

وللشيخ المطهريّ قدس سره كلمة قيّمة هنا، إذ يقول: «كثير من الناس يحبّ الإسلام ولكن بشرط أن يكون هو حجّة الإسلام، فلو قال غيره هذا الإسلام الذي يقوله هو لا يقبله».

ومن هنا قال الإمام الخميني قدس سره: (لو اجتمع الأنبياء جميعاً في مكان واحد لما اختلفوا، لأنّه لا أحد منهم يقول: «أنا»، بل كلّ منهم يقول: «هو»، و«هو» واحد فلا معنى لأن يقع الاختلاف بينهم، بل يقع التنازع والاختلاف حينما تصير الأعمال للـ «أنا» وهي متعدّدة). والقرآن صريح في ذلك: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[٢]، وهذا ضابط مهمّ وخطير يضعه القرآن الكريم بيدك لتعرف هل العمل من عند الله عزّ وجلّ أو من عند غيره.

ولابد من التنبيه هنا، أنّ الاختلاف المرفوض الذي نتحدّث عنه هو الاختلاف الذي ينشأ بين المؤمن وأخيه المؤمن داخل الأمّة الواحدة وذلك بفعل «الأنا» وإلاّ فإنّ الاختلاف بين الحق والباطل هو من وظائف وتكاليف المسلم؛ يقول تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

(١) **المحاسن** للبرقي، دار الكتب الإسلامية، قم : ٢٦٠ / ٣١٥ .
(٢) النساء: ٨٢.

بَيْنَهُمْ﴾[١].

وعلى كلّ حال، فإنّ منشأ الاختلاف داخل الأمّة الصالحة هو «الأنا»، ولعلمائنا قول: بأنّ هذه «الأنا» هي التي أسقطت إبليس عن ذلك المقام الرفيع، فقد صلّى إبليس قبل سقوطه ركعتين لله في السماء في ستّة آلاف سنة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام عنها: «**لا يُدرى أمن سنـي الدنيا أم من سنـي الآخرة**»[٢] التي لو حوّلت إلى أيّام حسب ما نعدّ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣] لكانت أمراً خيالياً، حتى لو فرضنا أنها (الستّة آلاف) كانت هي الواقع لا أنّها لكثرة وأنّ الواقع كان أكثر منها بكثير، ومع ذلك فإنّ هذا الذي صدر منه مثل هذا العمل، طلب منه سبحانه وتعالى طلباً حيث أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فقال في جوابه «أنا» فأسقطته «أناه» من ذلك المقام.

كلّ ذلك لنعتبر نحن فلا نفكّر بأننا قد ضمنّا لأنفسنا ضماناً بما نعمله من أعمال نعتقد بأنّها مانعتنا عن السقوط، فإن «أنا» واحدة تُسقط وتُحبط كلّ عمل عمله الإنسان مهما امتدت سنواته، وبالعكس فقد يطوي الإنسان من خلال عمل واحد صغير مسافة الألف سنة بخطوة واحدة، فلا تتصوّروا بأنّ الإنسان يصل بكمّ أعماله؛ في الحديث القدسيّ: «.. **من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب**

(١) الفتح: ٢٩.
(٢) **نهج البلاغة**، ص٢٨٧ ، الخطبة القاصعة.
(٣) الحج: ٤٧.

إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومن تقرّب إليّ باعاً مشيت إليه هرولةً»[١] فقد يدخل الإنسان إلى المسجد وهو كافر فاجر من أهل النار بنيّة صالحة فيتحوّل إلى مؤمنٍ صالح، ويخرج آخر وهو كافر فاجر وإلى النار وقد دخل مؤمناً صالحاً.

فلا الكمّ منظور في الأعمال ولا صورتها وظاهرها بل المدار على نيّة العمل وحقيقته وباطنه. وعلى هذا تفسّر ضربة عليّ عليه السلام يوم الخندق التي ساوت عبادة الثقلين ـ وفي بعض الروايات فضّلتهما ـ وما ذلك إلاّ بسبب باطن عمل الإمام عليه السلام ونيّته وإخلاصه، وإلاّ قد لا تفرق تلك الضربة من حيث الظاهر والعمل الخارجي عن ضربة أيّ شخص آخر يضربها ويقتل بها عمر بن عبد ودّ.

واعلموا أنّ الإخلاص في العمل كالكبريت الأحمر في ندرته، ولا إخلاص إلاّ بمعرفة ولذا قال عليّ عليه السلام: «**أوّل الدين معرفته**»[٢]. والمطلب أخطر ممّا قد يُتصور، ويشتدّ فيمن يريد سلوك طريق العلم والعلماء «**إذ يغفر [الله] للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً**»[٣] وقد يكتفى بالعدد المعلوم من الركعات وبصيام ثلاثين يوماً وآيتين من القرآن الكريم بالنسبة لعوام الناس ولا يكون ذلك كافياً لطالب العلم، لأنّ المعرفة إذا اختلفت اختلف الحساب.

---

(١) **صحيح البخاري**، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة الأولى .

(٣) **خاتمة المستدرك** للنوري، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: ج٥ ص٢٤٧.

«وهذا المسلك هو المأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه (أي في علم الأخلاق). ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على انتخاب الممدوح عند عامّة الناس عن المذموم والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه...»[١].

فهو إذن مسلك الفلاسفة وعلماء الأخلاق السابقين ولم يستعمله القرآن، والسرّ في ذلك أنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يدعو الناس إلى هذا الأمر على أساس دنيوي وجزاء زائل اعتباري.

كما أنّ مثل هذا الأساس إنّما يصلح ظاهر العمل لا باطنه فإنّ الثناء الجميل والذكر الحسن ـ مثلاً ـ يتوقّف على ظاهر العمل لا باطنه، ومثل هذا مثل ذلك الشخص الذي كان يصلّي في المسجد ويحسن القراءة، حتّى إذا مدح قراءته من كان جالساً إلى جواره التفت إليه قائلاً: وأنا مع ذلك صائم، فلأنّه كان يعيش مع الظاهر اضطرّ إلى إعطاء الظاهر والتصريح به مع أنّ حقيقة الجزاء تكمن في باطن العمل لا ظاهره.

وهاهنا مسألة مهمّة لابدّ من الإشارة إليها، وهي أنّ الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس، بل أوجد له قوانين محكمة ودقيقة ثمّ وجّه الإنسان بعد ذلك إلى اتخاذ هذا الظاهر معبَراً إلى الحقيقة وإلى بواطن الأعمال.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١ ص٣٥٥.

المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية

ويبتني هذا المسلك على دعوة الإنسان وحثّه على الاتّصاف بالخصال الحسنة والحميدة وعلى اجتناب العادات الرديئة والسيّئة، وذلك من خلال الجزاء الأخروي ثواباً أو عقاباً.

فهاهنا، كما في المسلك الأوّل، تجارة وعوض ومعوض. غاية الأمر أنّ العوض قد يكون معجّلاً ومرتبطاً بالدنيا كما في المسلك الأوّل، وقد يكون مؤجّلاً ويعطى للإنسان في الآخرة كما هو في المسلك الثاني.

والظاهر أنّ أغلب الناس لا يعتني بالعوض المؤجَّل لأنّهم طُبعوا على حبّ الثمن المعجّل والاهتمام به وإن كان أقلّ قيمة بل لا قيمة له بالنسبة إلى المؤجّل، كما في العوض الدنيوي بالنسبة للأخروي! قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[1].

وعلى كلّ حال فإنّ للجزاء الأخروي خصوصيتين مهمّتين أيضاً هما:

الأولى: أنّه يُصلح ظاهر العمل وباطنه لأنّ المجازي هو الله سبحانه وتعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء. فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**... فإنّ الشاهد هو الحاكم..**»[2].

(١) القيامة: ٢٠، ٢١.

(٢) **نهج البلاغة**، الكلمات القصار: ص ٣١٦ .

فالحاكم يوم القيامة هو الشاهد في هذا العالم وفي هذه النشأة؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «**اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[١].

فعلى الإنسان عبادة الله تعالى كأنّه يراه إن لم يستطع الوصول إلى مقام أن يرى الله شاهداً في كلّ شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾[٢] أي: أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء مشهود، فالله تعالى مشهود في كلّ شيء ولكن لعمى بصائرنا لا نراه، ولذا قال علماؤنا في تفسير قول إمام العارفين، الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**عميت عين لا تراك عليها رقيباً**»[٣] : إنّ هذا ليس دعاءً بل هو قضية إخبارية، وإنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من لا يراك فهو أعمى.

وحين سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: هل رأيت ربّك، يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: «**أفأعبد ما لا أرى؟**» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان...**»[٤] فهو عزّ وجلّ مشهود بالبصيرة وبالقلب لا بالعين المادية.

---

(١) **مصباح الشريعة**، مؤسسة الأعلمي، بيروت: ص ٨ .
(٢) فصلت : ٥٣.
(٣) **مفاتيح الجنان**، دعاء عرفة.
(٤) **نهج البلاغة**، ص ٢٥٨ ، الخطبة ١٧٩ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما من قلب إلاّ وله عينان وأذنان فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت**»[١] وعن السجّاد عليه السلام: «**ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته**»[٢] وهو الملكوت الذي عُبّر عنه في الآية المباركة ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٣] فقد حصل إبراهيم عليه السلام على اليقين من رؤيته ملكوت السماوات والأرض، فإذا أبصر الإنسان هذا الملكوت وصل إلى مقام اليقين الذي تحدّثت عنه الروايات الشريفة. ولكن كيف يرى الإنسان ملكوت السماوات والأرض؟

والجواب: إنّ هذه الرؤية لا يمكن أن تتمّ إلاّ من خلال تنقية القلب وتطهيره؛ ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٤] وفي نسبة العمى إلى القلب دليل على أنّ للقلب إبصاراً حسب نسبة الملكة وعدمها، وعلى هذا فقد يرى الإنسان ما حوله ويقول: هذه عيني أرى فيها كلّ شيء، فيقال له: إنّك لا ترى شيئاً؛

(١) **تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم** للسيّد حيدر الأمين، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسوي التبريزي ج١ ص٢٧٢.

(٢) **الخصال**: ج ١، ص٢٤٠ ، ح٩٠ .

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) الحج: ٤٦.

يقول تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[١] لأنّها رؤية لا تتمّ بهذه الأعين الظاهرية الموجودة حتّى للحيوانات، بل هي أعين القلب ولذا فإنّهم لا يبصرون بها. وهكذا قوله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم ما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

الثانية: أنّه جزاء دائم لأنّه جزاء أخروي والآخرة لا تزول لأنّها باقية بإرادة الله سبحانه وتعالى.

«وهذا المسلك في إصلاح الأخلاق هو طريقة الأنبياء، ومنه شيء كثير في القرآن وفيما ينقل إلينا من الكتب السماوية»[٣]، فالقرآن الكريم لم يتجاوز هذا المسلك بل اعتبره طريقاً جيّداً لإصلاح النفوس من خلال الترهيب والتحذير من النار والترغيب في الجنّة.

وهناك آيات كثيرة أشارت إلى هذه الطريق.

● قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٤].

والباء في «بأنّ» للمقابلة، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها**»[٥] لا بدراهم معدودة أو

(١) الأعراف: ١٧٩.
(٢) المطففين: ١٤.
(٣) **الميزان في تفسير القرآن**، ج١، ص٣٥٨.
(٤) التوبة: ١١١.
(٥) **نهج البلاغة**، ص٥٥٦ .

رئاسة أو جاه محدود وما إلى ذلك من العناوين الاعتبارية التي نتقاتل عليها كلّ يوم صباحاً ومساءً.

- وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].
- وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].
- وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[٣].

كما أنّ هناك كثيراً من الروايات التي تعضد الآيات المباركة في تأييد هذا المسلك، وستأتي الإشارة إليها فيما بعد.

وهذا المسلك هو الغالب على الناس في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها؛ قال الطباطبائي في تفسيره: «وطباع الناس مختلفة في إيثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها، فبعضهم ـ وهو الغالب ـ يغلب على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً، ولفرائصه ارتعاداً ويساق بذلك إلى عبادته خوفاً من عذابه، وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة

(١) الزمر: ١٠.
(٢) إبراهيم: ٢٢.
(٣) آل عمران: ٤.

والجنّة»[١].

من هنا نجد أنّ تلامذة الأئمّة عليهم السلام كانوا يطلبون منهم أن يرغّبوهم في الجنّة ويشوّقوهم إليها، أو يخوّفوهم من النار.

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جعلت فداك يابن رسول الله، شوّقني إلى الجنّة، فقال: «**يا أبا محمد إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدّنيا وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلاً لو نزل به أهل الثقلين الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً ولا ينقص ممّا عنده شيء...**»[٢].

فللجنّة درجات بعدد آيات القرآن الكريم، حسب ما ورد في الروايات الشريفة، ولذا يقال للعبد يوم القيامة: «**اقرأ وارقَ**»[٣]، ولا يتصوّر بعضٌ أنّ المراد هو حفظ الآيات، وإلاّ قد يتفوّق بعض النواصب على كثير من شيعة أهل البيت عليهم السلام لكثرة حفظهم، بل المراد هنا أنّ ذاك العلم بالآيات قد صار عملاً، كما أشرنا إلى ذلك بحوثنا عن التوحيد العملي.

أضاف الإمام عليه السلام في وصف الجنّة: «**... وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والأثمار ما شاء الله ممّا يملأ عينه قرّة**

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، ج١١، ص١٥٨.
(٢) **تفسير القمي**، نشر مكتبة الهدى، قم ٢ : ٨٢ .
(٣) **أمالي الصدوق** : ج٤٤٠ ص ٥٨٦ .

وقلبه مسرّة، فإذا شكر الله وحمده، قيل له ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية»[١].

فالشكر إذن سبب لزيادة العطاء الإلهي حتّى في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] فهو سبب ارتقاء الإنسان في مراتب الجنّة ودرجاتها.

ثمّ أضاف الإمام عليه السلام: «**فيقول يا ربّ اعطني هذه، فيقول الله تبارك وتعالى: إن أعطيتك إيّاها سألتني غيرها. فيقول: ربّي هذه هذه**»[٣] إذ لا حدّ لطمع الإنسان؛ باعتبار حبّه للكمال المطلق فكلّما يُعطى يريد المزيد.

ثمّ قال عليه السلام: «**فإذا هو دخلها شكر الله وحمده أيضاً، فإذا شكر الله وحمده، فيقال: افتحوا له باب الجنّة، ويقال له: ارفع رأسك هذه الحديقة الثالثة، فإذا فتح له باب من الخلد ويرى أضعاف ما كان فيه، قيل: فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربّي لك الحمد الذي لا يحصى إذ مننت عليَّ بالجنان ونجيتني من النيران**».

قال أبو بصير: فبكيت، ثمّ قلت: جعلت فداك زدني، قال: «**يا أبا محمد إنّ في الجنّة نهراً في حافته جوار نابتات إذا مرّ المؤمن بجارية**

---

(١) **تفسير القمي**: ج٢ ص ٨٢.
(٢) إبراهيم: ٧.
(٣) **تفسير القمي**: ج٢ ص ٨٢.

أعجبته، قلعها وأنبت الله مكانها...»[١]. فلا ينقص عطاء الله بل لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، إذ كلّ ما وجد جوع وعطش وطلب وحاجة يوجد هناك عطاء وجود وكرم.

إلى أن يقول السائل: قلت: جُعلت فداك، ألهنّ كلام يكلّمن به أهل الجنّة؟ قال: «**نعم، كلام يتكلّمن به لم يسمع الخلائق بمثله**». قلت: ما هو؟ قال: «**يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبؤس ونحن المقيمات فلا نضعن ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن خلق لنا وطوبى لمن خلقنا له، نحن اللواتي لو قرن إحدانا عُلّق في جوّ السماء لأغشى نوره الأبصار**»[٢].

وفي رواية ليلة المعراج، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتم؟ فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا سكت أمسكنا..**»[٣].

وحين استبشر أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله بهذا الخبر وظنّوا أنّ قصورهم في الجنّة كثيرة، قال لهم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) **تفسير القمي**: ج ٢ ص ٨٢ .
(٢) **تفسير القمي**: ج٢ ص ٨٢ ـ ٨٣ .
(٣) **البحار**: ج١٨، ص٢٩٢.

وآله: «**إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها!**»[١].

ثمّ قال: «... فهاتان الآيتان، قوله ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، قال: **التوحيد والإخلاص**... وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[٢] قَالَ: **الولاية**»، فالهدف إذن هو التوحيد والطريق هو الولاية، ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا الصراط المستقيم**»[٣] فهو عليه السلام الصراط المستقيم الناطق.

المسلك الثالث: الحبّ الإلهي

قال الطباطبائي قدس سره: «وهاهنا مسلك ثالث مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء ممّا نقل إلينا من الكتب السماوية، وتعاليم الأنبياء الماضين سلام الله عليهم أجمعين، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيين، وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أُخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع»[٤].

ولكي يتّضح هذا المسلك لابدّ من بيان مقدّمة حاصلها: أَنَّ طريقة التهذيب تتمّ تارة من خلال وجود المانع، وأُخرى من خلال رفع

(١) **أمالي الصدوق**: ص٦٠٧، ح١٦ المجلس ٨٧ .
(٢) الحج: ٢٤.
(٣) **نوادر المعجزات** للطبري، نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهدي ، قم، ١٤١٠، ص٣٣.
(٤) **الميزان**، للطباطبائي، ج١، ص٣٥٨.

المقتضي.

فقد يريد الإنسان جاهاً أو عزّاً أو ملكاً أو سمعة حسنة في هذه الدنيا، ويتصوّر أنّ بإمكان الله سبحانهُ وتعالى إعطاء هذه الأمور له كما أنّ بإمكان غير الله تبارك وتعالى ذلك، فيميل وحسب طبعه إلى ما في أيدي الناس، فيأتيه التحذير، بأنّك سوف تخسر وتُعذَّب يوم القيامة فيكون العذاب مانعاً عن توجّه النفس إلى ما في أيدي الناس، وهكذا يكون المقتضي للتوجّه إلى ما عند الناس موجود ولكن المانع غير مفقود، وهذا من قبيل الورقة المبتلة بالماء التي لا تحترق بالنار، لا لعدم وجود المقتضي، فاقتضاء الإحراق موجود في النار، بل لوجود المانع وهو البلل، وكما أنّ تهذيب النفس وإصلاحها يمكن أن يكون بإيجاد المانع من خلال الترهيب فإنّه يمكن أن يكون من خلال الترغيب أيضاً فيُقال لمن يرجو ويرغب بما في أيدي الناس، بأنّ هذا الذي ترجوه محدود ومنقطع وزائل وعليك أن تستبدله بأجر أفضل منه وهو أجر الآخرة الباقي الدائم الذي عند الله تبارك وتعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1].

إنّ خصوصية إبداء المانع مع وجود المقتضي هي خصوصية المسلك الثاني ، أمّا المسلك الثالث الذي نحن فيه، فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان لا أن يزاحمه بالمانع المخوف أو المرغب.

(١) النحل: ٩٦.

ويتقوّم هذا المسلك بركنين:

الركن الأوّل: هو ركن المعرفة والعلم وذلك بأن يعطى الإنسان علوماً ومعارف توصله إلى التوحيد الخالص، فمن أراد العمل فعليه أن يعرف الله أوّلاً «**أوّل الدين معرفته**» فيعرف أنّ العزّة والقوّة والملك لله وحده تبارك وتعالى، وأنّه لا يوجد شيء في العالم صغر أو كبر، هان أو عظم، إلاّ بإذنه تبارك وتعالى، وحينئذ لن يتوجّه مثل هذا الإنسان إلى الناس وإلى ما في أيديهم لأنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ الغني منهم لا يملك ولا يعطي ولا يمنع إلاّ بإذن الله، فلا يرجوه، وأنّ القوي منهم لا يعزّ ولا يذلّ ولا يضرّ ولا ينفع إلاّ بإذن الله، فلا يخافه، ومن هنا ورد في الرواية عنهم عليهم السلام: «**من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء**»[١].

وقد بيّن العلاّمة قدس سره هذا الركن، قال: «.. وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل وذلك كما أن كلّ فعل يراد به غير الله سبحانه فالغاية المطلوبة منه إمّا عزّة في المطلوب يطمع فيها، أو قوّة يخاف منها ويحذر عنها، لكن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢]، ويقول: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]، والتحقّق بهذا العلم الحقّ لا يبقى موضوعاً لرياء، ولا

(١) **وسائل الشيعة**، ج١٥، ص٢١٩، الحديث ٤.
(٢) يونس: ٦٥.
(٣) البقرة: ١٦٥.

سمعة، ولا خوف من غير الله، ولا رجاء لغيره، ولا ركـون إلـى غيـره، فهاتان القضيتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كلّ ذميمة وصفاً أو فعلاً عن الإنسان وتحلّيان نفسـه بحليـة مـا يقابلهـا مـن الصـفات الكريمة الإلهية من التقوى بـالله، والتعـزّز بـالله وغيرهمـا مـن مناعـة وكبرياء واستغناء وهيبة إلهية ربّانية.

وأيضاً قد تكرّر فـي كلامـه تعـالى: أن الملـك لله، وأن لـه ملـك السماوات والأرض وأن له ما في السـماوات والأرض وقـد مـرّ بيانـه مراراً، وحقيقة هذا الملك كما هو ظاهر لا تبقي لشيء من الموجودات استقلالاً دونه، واستغناء عنه بوجه مـن الوجـوه، فـلا شـيء إلاّ وهـو سبحانه المالك لذاته ولكل مـا لذاتـه، وإيمـان الإنسـان بهـذا الملـك وتحقّقه به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنـده عـن درجة الاستقلال، فهذا الإنسان لا يمكنه أن يريد غير وجهه تعالى، ولا أن يخضع لشيء، أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذّ أو يبتهج بشيء، أو يركن إلى شيء أو يتوكّل على شيء أو يسلّم لشـيء أو يفـوّض إلـى شيء، غير وجهه تعالى، وبالجملة لا يريـد ولا يطلـب شـيئاً إلاّ وجـه الحقّ الباقي بعد فناء كلّ شيء، ولا يعرض إعراضاً ولا يهرب إلاّ عـن الباطل الذي هو غيره الذي لا يرى لوجوده وقعاً ولا يعبأ به قبال الحقّ الذي هو وجود باريه جلّ شأنه»[1].

لذا قال الطباطبائي في موضع آخر: «إذن الواجـب علـى العبـد أن

(١) **الميزان**، للطباطبائي، ج١ ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

يتوجّه في حوائجه إلى جناب العزّة وباب الكبرياء، ولا يركن إلى سبب بعد سبب، وإن كان أبى الله أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلاّ بالله الذي أفاض عليها السببية، لا أنّها هداية إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير السبب، فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده، وكلّ ذلك أسباب؟»[1].

وهاهنا نكتة مهمّة، وهي أنّ قولنا: إنّ مثل هؤلاء الناس لا يريدون ولا يطلبون غير وجه الله، لا يعني أنّهم لا يتوسّلون بالأسباب إلى أغراضهم فيجلسون جياعاً ويطلبون الطعام منه عز وجل، وعراة ويطلبون اللباس منه وهكذا، بل عليهم طلب الطعام واللباس وغير ذلك ممّا يحتاجونه في حياتهم الدنيوية مع علمهم بأن لا مؤثّر في طلباتهم هذه وغيرها إلاّ الله تبارك وتعالى.

الركن الثاني: وهو ركن العمل، فبعد أن يتعلّم الإنسان التوحيد وتحصل عنده تلك الملكة العلمية التي أشرنا إليها في الركن الأوّل، عليه أن يتحقّق بالتوحيد العملي، والطريق إلى ذلك هو الحبّ، فلا يحبّ غير الله تعالى، فإنّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً أَطاعه وعبده فإنّ من آثار الحبّ الطاعة والتسليم وهي «العبادة»، فمن أحبَّ الله عبَده ومن

(١) **الميزان**، للطباطبائي، ج٢ ص٤٠.

أحبَّ الدنيا الزائلة عبَدها ﴿أَرأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[١]. ومن عبد الشيء الزائل فإنّ معبوده سوف يزول يوماً ما ولكن علاقته به لن تزول وسوف يحشر يوم القيامة ومعه تلك العلاقة وذلك الحبّ للمعبود الزائل وسيعيش حرقة الألم اللامتناهي على محبوبه الذي لا وجود له.

ولا يعني هذا حرمة الاستفادة من الدنيا أو أن يملك الإنسان فيها شيئاً ما، فإنّ القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام لم تحرّم ولم تمنع الإنسان المسلم من أن يتزوّج أو أن يكون له مال أو ولد، بل له كلّ ذلك، بشرط أن لا يتعلّق قلبه بهذه الأمور لأنّها إلى زوال وفناء، ومن هنا قالوا: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً ولكن الزهد أن لا يملكك شيء». وفي قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] إشارة إلى أنّ نيل البرّ لا يتمّ حتّى ينفق الإنسان ممّا يحبّه بحيث لا يستطيع هذا الشيء الذي يحبّه أن يتملّكه فيكون عبده ولا يتمكّن من إنفاقه في سبيل الله.

وفي ذيل هذه الآية المباركة، يقول الفيض الكاشاني: هناك قراءة أُخرى في الآية وهي «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حتَّى تُنفِقوا مَا تُحِبُّونَ»[٣] لا ﴿مِمَّا

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) **تفسير الصافي**، تأليف فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقب بـ «الفيض الكاشاني» المتوفى سنة ١٠٩١ هـ، ج١

تُحِبُّونَ﴾، فشرط نيل البرّ ـ على هذه القراءة ـ هو إنفاق كلّ ما يحبّ الإنسان لا بعض ما يحبّه! فمن لم يستطع أن يكون من هذه الطبقة فلا أقلّ يعمل على أن يكون من طبقة ﴿ممّا تحبّون﴾.

والخلاصة، أنّ على الإنسان أن يجعل قلبه متعلّقاً بالله سبحانه وتعالى وحده ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[1] إذ لا يجتمع حبّ الله تبارك وتعالى وحبّ الدنيا في قلب واحد.

وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى هذا المسلك وآثاره المترتّبة عليه بقوله: «إنّ العبد إذا أخذ إيمانه في الاشتداد والازدياد انجذبت نفسه إلى التفكير في ناحية ربّه، واستحضار أسمائه الحسنى وصفاته الجميلة المنزّهة عن النقص والشين، ولا تزال تزيد نفسه انجذاباً وتترقى مراقبة حتى صار يعبد الله كأنّه يراه وإنّ ربه يراه، ويتجلّى له في مجالي الجذبة والمراقبة والحبّ، فيأخذ الحبّ في الاشتداد، لأنّ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ﴾[2] وصار يتبع الرسول في جميع حركاته وسكناته، لأنّ حبّ الشيء يوجب حبّ آثاره، والرسول من آثاره وآياته كما أنّ العالم أيضاً آثاره وآياته تعالى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

ص٣٢٨، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) البقرة: ١٦٥.

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[١] .

ولا يزال يشتدّ هذا الحبّ ثمّ يشتدّ حتى ينقطع إليه من كلّ شيء ولا يحبّ إلاّ ربّه ولا يخضع قلبه إلاّ لوجهه، فإنّ هذا العبد لا يعثر بشيء ولا يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحُسن إلاّ وجد أنّ ما عنده أنموذج يحكي ما عنده (تعالى) من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له، لأنّ كلّ ما سواه آية له ليس له إلاّ ذلك، والآية لا نفسية لها وإنّما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلاّ لأنّه آية من آيات ربّه، وبالجملة فينقطع حبّه عن كلّ شيء إلاّ ربّه، فلا يحبّ شيئاً إلاّ لله وفي الله سبحانه.

وحينئذ يتبدّل نحو إدراكه وعمله، فلا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس، لأنّهم إنّما ينظرون إلى كلّ شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم. وكذلك الأمر من جهة العمل فإنّه إذا كان لا يحبّ إلاّ الله، فلا يريد شيئاً إلاّ الله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلاّ لله وفي الله، فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض، وتتبدّل غاية

(١) آل عمران: ٣١.

أفعاله، فإنّه كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلة إنسانية، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلة نفسانية. أمّا الآن فإنّه يريد وجه ربّه، ولا همّ له في فضيلة ولا رذيلة ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو جنّة أو نار، وإنّما همّه ربّه وزاده ذلّ عبوديّته ودليله حبّه»[١].

وهؤلاء هم العلماء بالله الذين لا يعبدونه خوفاً من عقابه ولا طمعاً في جنّته وإنّما يعبدونه لأنّه أهلٌ للعبادة «وذلك لأنّهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا، فعلموا أنّه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيء غيرهم، ويدبّر الأمر وحده وليسوا إلاّ عباد الله فحسب، وليس للعبد إلاّ أن يعبد ربّه ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلاً كان أو تركاً إلاّ وجهه. وهذا ما أشارت إليه الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[٢].

وفي «العلل» و«المجالس» و«الخصال» عن الصادق عليه السلام

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١ ص٣٧٣.

(٢) **أصول الكافي** للكليني، ج٢ ص٨٤، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، ح٥.

أيضاً: «إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عز وجل فتلك عبادة الكرام؛ لقوله عز وجل ﴿وَهُم من فَزَعٍ يَوْمَئذ آمِنُونَ﴾[١] ولقوله عز وجل ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فمن أحبّ الله عز وجل أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلاّ المطهّرون»[٢].

وقد بيّن القرآن مَنْ هم المطهّرون بقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣]. وقد أوضحنا مفصّلاً في كتاب «العصمة» أنّ هذه الآية مختصّة بالنبيّ وعلي وفاطمة والحسنين صلوات الله و سلامه عليهم.

ولا يفهم من هذا أن مسلك الحبّ والقرب الإلهي محال على الآخرين، ولا ينبغي لهم اليأس منه، غير أنّه صعب المنال لتوقّفه على معرفة عالية بالتوحيد وإلى تهذيب ورياضات ومجاهدات شاقّة من أجل أن يصل الإنسان إلى مقام ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[٤].

---

(١) النمل: ٨٩.
(٢) نقلاً عن **الميزان**: ج١، ص٣٧.
(٣) الأحزاب: ٣٣.
(٤) الدهر: ٩.

طبعاً لا يخفى أنّ مقام العصمة والطهارة التي ثبتت لأصحاب الكساء ممّا لا يمكن نيله لأحد غيرهم عليهم السلام لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج: «**إنّ آل محمّد صلّى الله عليه وآله لا يقاس بهم أحد**»[1].

وكيفما كان فإنّ الغالب على الناس هو اتّباعهم مسلك الجزاء الأخروي في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، وإلاّ فهل سيبقون على طاعاتهم وعبادتهم وعلى ارتداعهم عن المعاصي، حتّى لو أمنوا النار أو ضمنت لهم الجنّة؟ ولا أقول هل سيبقون على ذلك حتّى لو علموا بأنّ الله تبارك وتعالى سوف يدخلهم النار، ومن الواضح أنّ هذا مقام لا يصله إلاّ الأوحدي من الناس كالنبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام.

ومع هذا كلّه، فإنّ بإمكان الإنسان أن يروّض نفسه من أجل الارتقاء إلى ذلك المقام العالي، فلا يقرأ دعاءً مثلاً ولا يصلّي صلاة ولا يفعل فعلاً ما ونظره المباشر إلى ثواب تلك الأعمال التي يقوم بها، بل ينظر إلى العمل بذاته وإلى محتواه، وأنّ ما يقوم به هو عبادة لله سبحانه وتعالى قبل كلّ شيء، وهكذا وبتكرار هذا العمل يحصل على الملكات التي تؤهّله لأن يرتقي وأن يصل إلى ما يصبو إليه.

---

(١) **نهج البلاغة**: الخطبة ٢ ، ص ٤٧ .

الفهارس

١ . الآيات القرآنية الكريمة

٢ . الأحاديث والروايات الشريفة

٣ . أهم المصادر المعتمدة

٤ . محتويات الكتاب

فهرس الآيات

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
	الفاتحة	
٦ – ٧: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ... وَلاَ الضَّالِّينَ		٦٢
	البقرة	
٢ – ٥: ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ... هُمُ الْمُفْلِحُونَ		٢٣
٣٠: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ		٧٩
١٣٨: صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً		١٧
١٥١: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ		٢١
١٦٥: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ... أنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا		٤٦، ١١٣، ١١٧
١٩٧: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ		١٩
٢٦٩: وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً		٦٠

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة

آل عمران

٤: إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَام	١٠٧
٦: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ	٤٥
٣١: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِـعُونِي يُحْبِـبْكُمُ اللهُ	١١،٢٣، ١١٨، ١٢٠
٤٩: وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِـإِذْنِ اللهِ	٤٦
٩٢: لَن تَنَالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ	١١٦،١١٧
١٣٤: وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ	٧
١٥٦: وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِـمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ	٤٥
١٥٩: فَبِـمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ... فَاعْفُ عَنْهُم	٥، ٦،٧
١٦٤: لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ	٢٢

النساء

٤٩: بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ	٢٢
٦٩: وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ	٦٢
٨٢: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا	٩٩
١٣٩: فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً	٤٦
١٦٥: رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ	١٩

المائدة

٣٢: وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً	٤٦

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة

الأنعام

٢٨: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٧٩، ٨٠
٦١: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ٤٦
٧٥: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ١٠٥
٨٧: وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم ٨٥
٩٠: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ٨
١٤٩: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ١٩

الأعراف

٥٨: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ٩٥، ٩٦
١٧٩: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ ٦٣، ١٠٦
٢٠٠ – ٢٠١: وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ ... فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ٣٣

الأنفال

٢٢ – ٢٣: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ.... وَهُمْ مُعْرِضُونَ ٨٣

التوبة

٧٤: إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ٤٦
٧٧: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ٩٥
١٠٣: تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ٢٢

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
١١١: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ		١٠٦
	يونس	
٦١: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْن وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآن		٧٧
٦٥: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا		١١٣
	الرّعد	
٨ – ١٠: اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ... وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ		٧٧
١٧ – ١٨: أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ		٧٤،٦٨
	إبراهيم	
٧: لَئن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ		١٠٩
٢٢: إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ		١٠٧
٣٢ – ٣٤: اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ		١٥
	الحجر	
٢٨: إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَإ مَسْنُون		٧٦
٤٤ – ٤٥: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ... مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ		٥٣
٨٧: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ		١٠
٩٩: وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ		٩٥

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
	النّحل	
٩٦: مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاق		١١٢
	الإسراء	
١٨ – ٢٠: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ...		٨٢
٨٤: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ		٥٠،٩٤
	مريم	
١٢: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّة		٤٧
١٣: وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً		٢٣
	الأنبياء	
٢٢: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا		٨٠
	الحجّ	
٢٤: وَهُدُوا إلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ		١١١
٤٦: فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ		١٠٥
٤٧: وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ		١٠٠
٦٧: إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيم		٩
٧٨: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَج		٨٥

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
	المؤمنون	
٩١: وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض		٨٠
	الفرقان	
٤٣: أَرأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ		١١٦
٤٤: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ		٦٣
	النّمل	
٣٩: قَالَ عِفْريتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ		٤٧
٧٩: إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ		٩
٨٩: وَهُم من فَزَع يَوْمَئذ آمِنُونَ		١٢٠
	العنكبوت	
٦٩: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا		٥٩
	الرّوم	
١٠: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ		٩٥
٣٠: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا		١٧
	السجدة	
١١: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ		٤٦

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة

الأحزاب

٤: مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُل مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ١١٧

٢١: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ١١

٣٣: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٨٧، ١٢٠

٧٢: إِنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ ٢٠

سبأ

٣: عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّة ٧٨

فاطر

١٠: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ٩٥

١٥: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٤٦

٣٧: أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ٨٠

يس

٨٢: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٨٧

ص

٧١ – ٧٢ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِين... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٣٠

٧٥: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ١٦

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
	الزمر	
١٠: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَاب		١٠٧
٤٢: اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا		٤٥
	فصلت	
٥٣: أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيء شَهِيدٌ		١٠٤
	الزخرف	
٤٣: إِنَّكَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم		٩
	الجاثية	
١٣: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ		١٥
٢٩: إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ		٧٩
	الفتح	
٢٩: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ		١٠٠
	الذّاريات	
٥٦: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ		١٦

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
	الحشر	
٧: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا		٢٣
٢٤: هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى		٤٥
	الجمعة	
٢: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً		٢٢
٥: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا		٩٧
١١: وَإِذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا		٥
	المنافقون	
٨: وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ		٤٦
	القلم	
٤: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم		٨، ٩، ١١، ٢٥
	القيامة	
٢٠ – ٢١: كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ		١٠٣
	الإنسان	
٣: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً		٨٢
٩: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا		٩٨، ١٢٠

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
	المطففين	
١٤: كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم ما كَانُوا يَكْسِبُونَ		١٠٦
	الأعلى	
٢ – ٣: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى		١٧، ٢٠
	الشمس	
١ – ١٠: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا... وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا		١٢، ١٤-٢٣، ٧٠
	الليل	
٥ – ١٠: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى... فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى		٨٢

فهرس الأحاديث

مقطع من النصّ	اسم المعصوم	رقم الصفحة

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

إنّ بعثتـي بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال		٢١
إنّما بعثت لأُتمّم صالح الأخلاق		٢١
بعثت لأُتمّم حسن الأخلاق		٢١
إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق		٢١، ٩٣
إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق		٢١، ٧١، ٩٣
ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار، إلاّ وقد أمرتكم به		٢٤
إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي		٢٤
أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخُلُق الحسن		٢٥
أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء		٢٥
الدين حسن الخُلُق		٢٥
ولمّا خلق الله الكفر، قال: اللهمّ قوّني، فقوّاه بالبخل وسوء الخلق		٢٥
إنّ العبد ليبلغ بحسن خُلُقه عظيم درجات الآخرة... وإنّه لضعيف العبادة		٢٦
إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً		٢٦

مقطع من النص	المعصوم المرويّ عنه	رقم الصفحة
إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخُلُق		٢٦
خير ما أُعطي العبد حسن الخُلُق		٢٦
لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخُلُق		٢٦
حسن الخلق، خلق الله الأعظم		٢٧
إنّ حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد		٢٧
إنّ المسلم المسدّد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خُلقه		٢٧
تخلّقوا بأخلاق الله		٢٧، ٧١
إنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة		٢٧
إنّ لله تسعة وتسعين خُلقاً، من تخلّق بها دخل الجنّة		٢٨
مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر		٦١
الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة، خيارهم في الجاهلية..		٧٥
إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض		٧٥
اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له		٩٢
نيّة المرء خير من عمله		٩٩
من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً...		١٠١
لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون ... إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها		١١١
الإمام أمير المؤمنين عليه السلام		
إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة... وركّب في بني آدم كليهما		٦٣
إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم من أديم الأرض، فمنه السباخ ومنه الملح...		٧٦

مقطع من النص	المعصوم المرويّ عنه	رقم الصفحة
وكان ذلك من الله تقدمة في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجاً منه عليهم		٧٦
قليل يدوم خيرٌ من عمل كثير منقطع		٩٦
لا يُدرى أمن سنـي الدنيا أم من سنـي الآخرة		١٠٠
أوّل الدين معرفته		١٠١، ١١٣
فإنّ الشاهد هو الحاكم		١٠٣
اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك		١٠٤
أفأعبد ما لا أرى؟		١٠٤
لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان		١٠٤
إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها		١٠٦
أنا الصراط المستقيم		١١١
إنّ آل محمّد صلّى الله عليه وآله لا يقاس بهم أحد		١٢١
الإمام الحسين عليه السلام		
عميت عين لا تراك عليها رقيباً		١٠٤
الإمام السجّاد عليه السلام		
ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه		١٠٥
ما من قلب إلاّ وله عينان وأذنان فإذا أراد الله بعبد خيراً		١٠٥
الإمام الباقر عليه السلام		
أحسنوا الظنّ بالله واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب		٥٢

مقطع من النص	المعصوم المرويّ عنه	رقم الصفحة
كان الله ولا شيء غيره، ولم يزل الله عالماً بما يكون		٧٨
إنّ الله وتعالى لم يزل عالماً قديماً		٨٤
من زعم أنّ الله خلق الأشياء من شيء فقد كفر		٨٤
مزج بينهما بالماء الأوّل والماء الثاني، ثمّ عركها عرك الأديم		٨٤
الإمام الصادق عليه السلام		
حجّة الله على العباد النبـي، والحجّة بين العباد وبين الله العقل		١٨
الناس يمرّون على الصراط طبقات، والصراط أدقّ من الشعر		٣٣
ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان		٥٧
تعالى الله بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه		٧٩
بل كان في علمه قبل أن ينشئ السموات والأرض		٧٩
إنّ الله لم يجبر أحداً، ولا أراد – إرادة حتم – الكفر من أحد		٨٣
ليست هي إرادة حتم، إنّما هي إرادة اختيار		٨٣
رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان		٨٦
لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنّ الطاعة إذاً ما كانت فعلهم		٨٧
العمل القليل الدائم على اليقين أفضل... من العمل الكثير على غير يقين		٩٦
لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل		٩٦
يغفر الله للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً		١٠١
اقرأ وارقَ		١٠٨
وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق		١٠٨
إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام		١٠٨

مقطع من النص	المعصوم المرويّ عنه	رقم الصفحة
فإذا هو دخلها شكر الله وحمده... فيقال: افتحوا له باب الجنّة		١٠٩
فيقول الله تبارك وتعالى: إن أعطيتك إيّاها سألتني غيرها		١٠٩
إنّ في الجنّة نهراً في حافته جوار نابتات		١١٠
نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبؤس		١١٠
من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء		١١٣
إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد		١١٩
إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه		١٢٠
الإمام الكاظم عليه السلام		
إنّ لله حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة		١٨
الإمام الرضا عليه السلام		
لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلقها كعلمه بها بعدما خلقها		٧٨
إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء		٧٩
فقد علم عزّ وجلّ أنّه لو ردّهم لعادوا لما نهوا عنه		٧٩
فقد علم الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون		٨٠

فهرس المصادر

إحياء علوم الدين، ٢٥، ٣٠، ٣٢، ٧٢
تصنيف: الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي (المتوفّى سنة ٥٠٥ هـ)، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

أخلاق النبي في القرآن والسنّة، ١٠، ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٧٥

آداب النفس، ٥٧
للعارف الحكيم الكامل السيد محمد العيناتي، حقّقه وصحّحه السيد كاظم الموسوي الميماوي، منشورات المكتبة الرضوية - إيران.

أربع رسائل للشيخ أبي على ابن سينا، ٧٤
بتحقيق الأهواني، الطبعة الأولى، مصر سنة ١٣٧١هـ

الإشارات والتنبيهات، ٥٢، ٥٤
للشيخ أبي علي حسين بن عبد الله بن سينا، مع الشرح للمحقّق نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي، وشرح الشرح للعلاّمة قطب الدين محمّد بن محمّد بن أبي جعفر الرازي.

الأصول العامّة للفقه المقارن، ٨٨
تأليف: العلاّمة السيد محمد تقي الحكيم، دار الأندلس، بيروت – لبنان، ط: ٢، عام ١٩٩٧.

الأصول من الكافي، ١٨، ٢٤، ٥٧، ٧٨، ٨٣، ١١٩
لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات.

أمالي الصدوق، ٣٣، ١٠٨، ١١١
للشيخ الجليل الأقدم أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (المتوفى سنة ٣٨١ هـ)، تحقيق: مؤسّسة البعثة، قم – إيران.

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ٢٧، ٧٦، ٧٧، ٨٤، ٨٦، ١١٠
تأليف العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسي قدس سره، مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٩
تأليف: السيّد محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي: تحقيق: مصطفى حجازي، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع.

التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي، ٨
تأليف: سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور: مؤسّسة التاريخ، الطبعة الأولى.

التحصيل، ٣٦
تأليف: بهمنيار بن المرزبان، تصحيح وتعليق: مرتضى مطهري، منشورات كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية - إيران.

تعليقة على نهاية الحكمة، ٣٤
للشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي.

تفسير الصافي، ١١٦
تأليف: فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقب بـ «الفيض الكاشاني» المتوفى سنة ١٠٩١ هـ .

تفسير القمي، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠
تأليف: علي بن إبراهيم القمّي، نشر مكتبة الهدى، قم - إيران.

التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٦، ٩
للإمام فخر الدين الرازي الشافعي، منشورات: محمّد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ١٠٥
للسيّد حيدر الأمين، حقّقه: السيّد محسن الموسوي التبريزي.

تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ٦٣، ٩٦، ١١٣
تأليف الفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، (ت: سنة ١١٠٤ هـ ، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

التلويحات للسهرودي، ٣٦

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ٢٥
انتشارات استقلال، طهران ـ إيران.

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ٣١، ٣٤، ٦٧
لأبي علي أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي «مسكويه» (ت: ٤٢١هـ)، قدّم له الشيخ حسن تميم القاضي الشرعي.

التوحيد، ٧٩، ٨٠
للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (المتوفى سنة ٣٨١ هـ).

التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته، ٧١
تقريراً لدروس السيّد كمال الحيدري، بقلم: جواد علي كسّار، دار فراقد.

جامع السعادات، ٥٩، ٧٢، ٧٣، ٩٢
للشيخ الجليل المولى محمّد مهدي النراقي (ت: ١٢٠٩ هـ)، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ٢٨، ٤١، ٤٨، ٥٠، ٥٤
تأليف: صدر المتألّهين صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي، تصحيح وتعليق آية الله حسن زاده آملي.

خاتمة المستدرك للنوري، ١٠١
تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم - إيران.

الخصال، ٢٧، ٥٢، ١٠٥، ١١٩
للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (المتوفى سنة ٣٨١ هـ)، طبع: جامعة المدرّسين بقم.

دروس في الحكمة المتعالية شرح كتاب بداية الحكمة، ٣٧، ٤٤
السيّد كمال الحيدري، طبعة: دار الصادقين، قم - إيران.

رحيق مختوم، شرح الحكمة المتعالية، ٣٦
الحكيم المتألّه: حضرت آية الله جوادي آملي (بالفارسية).

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٧١
للعلاّمة أبي الفضل شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) مفتي بغداد ومرجع أهل العراق. صحّحه: محمّد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

شرح أصول الكافي، ٥٦
صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي: عني بتصحيحه: محمد خواجوي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي - إيران.

شرح المصطلحات الفلسفية، ٧٣
إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية.

الشفاء، الإلهيات، ٣٥، ٤٠، ٤٤
ابن سينا، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم المقدّسة، عام ١٤٠٤.

صحيح البخاري، ١٠١

العصمة بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني، ٨٨
محاضرات السيد كمال الحيدري، بقلم: محمد القاضي، الطبعة الثامنة، الناشر: دار فراقد.

عيون الحكم والمواعظ، ٩٦
دار الحديث، قم.

عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون، ٤٢-٤٩، ٥١، ٧٤
آية الله حسن حسن زاده آملي: مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران: ١٣٧١هـ ش.

الفروع من الكافي للكليني، ٦١

في ظلال القرآن، ١٠، ١٤
تأليف: سيّد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة: ١٣٩١ هـ.

القانون لابن سينا، ٤٥

كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين، ٨٩ ، ٩٠، ٩٢
لأبي نصر الفارابي، قدّم له وعلّق عليه: الدكتور البيرنصري نادر من أساتذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٧
تفسير القرآن الكريم للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المتوفّى سنة ٥٢٨ هـ

لسان العرب، ٢٩
للإمام العلاّمة ابن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١هـ): دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

المحاسن، ٩٩
تأليف: الشيخ الجليل الثقة الأقدم أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي (المتوفى سنة ٢٧٤ أو ٢٨٠هـ)، دار الكتب الإسلامية، قم.

المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٧
للمحقّق العظيم، والمحدّث الكبير، الحكيم المتألّه: محمّد بن المرتضى المدعوّ بالمولى محسن الكاشاني، الناشر: دفتر انتشارات إسلامي، إيران.

مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ٥٧
للعلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي.

مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ٢١، ٩٣
لخاتمة المحدّثين الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفى سنة ١٣٢٠هـ، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

مصابيح الأنوار، ٧٦، ٨٢
تأليف السيّد عبد الله شبّر: منشورات مكتبة بصيرتي، إيران ـ قم.

مصباح الشريعة، ١٠٤
مؤسسة الأعلمي، بيروت.

معجم مقاييس اللغة، ٣٠
لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: تحقيق وضبط عبد السلام محمّد هارون.

مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي، ١٠٤.

المفردات في غريب القرآن، ٢٣، ٣٠، ٦٠
لأبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهاني (٥٠٢هـ): دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ٧٣
للباحث محمّد علي التهانوي تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النصّ الفارسي إلى العربية: د. عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي.

الميزان في تفسير القرآن، ١٢، ١٨، ١٩، ٣٨، ٦٠، ٧٠، ٧٥، ٨٣، ٨٥، ٩٤، ٩٦، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١١٤، ١١٩، ١٢٠

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية.

نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار في الردّ على التحفة الاثني عشرية، ٢٤

تأليف السيّد علي الحسيني الميلاني.

نهج البلاغة، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٢١

وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح.

نوادر المعجزات، ١١١

للطبري، نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهدي ، قم.

محتويات الكتاب

تمهيد

أهمية العنصر الأخلاقي في القرآن ٥
وإنَّك لعَلى خُلق عَظيم ٨
قَد أفلحَ مَن زَكَّاهَا ١٢
الروايات الحاثّة على الأخلاق الحسنة ٢١

البحث الأوّل: تعريف علم الأخلاق

الأخلاق لغةً ٢٩
الأخلاق اصطلاحاً ٣١
موقع علم الأخلاق في منظومة المعارف ٣٥
تعريف علم الأخلاق ٣٨
قوى النفس الظاهرة والباطنة ٣٩
١. الحسّ المشترك ٤١
٢. الخيال ٤٢
٣. الوهم ٤٧
٤. الحافظة ٤٩
٥. المتصرّفة ٥٠
٦. المتخيّلة والمتفكّرة ٥٠

أبواب الجنّة والجحيم ٥٢
قوى النفس الإنسانية ٥٤
النفس وقواها الأربع ٥٧
اعتدال القوى النفسانية ٦٠
الفضائل التي تحت الحكمة والعفّة ٦٤
الفضائل التي تحت الشجاعة ٦٦
الفضائل التي تحت السخاء ٦٧

البحث الثاني: إمكانية تغيير الأخلاق

المقام الأوّل: إمكانية تغيير الأخلاق ٧٠
المقام الثاني: اختلاف درجات الناس في قبول التغيّر ٧٢
أخبار الطينة ٧٥
إشكالية الجبر في الفعل الإنساني ٧٧
إشكال وجواب ٨٧
جمع بين رأيين ٨٩

البحث الثالث: في طرق إصلاح أخلاق الإنسان

مقدمة ٩٣
مسالك التهذيب ٩٧
المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية ٩٧
المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية ١٠٣
المسلك الثالث: الحبّ الإلهي ١١١

الفهارس

الآيات القرآنية الكريمة ١٢٥
الأحاديث والروايات الشريفة ١٣٥
المصادر المعتمدة ١٤١
محتويات الكتاب ١٥١

من آثار المؤلّف

١- العصمة: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني. تقرير: محمد القاضي
(الطبعة الحادية عشرة)

٢- التقوى في القرآن: دراسة في الآثار الاجتماعية (الطبعة السابعة)

٣- التربية الروحية: بحوث في جهاد النفس (الطبعة السابعة)

٤- بحث حول الإمامة؛ حوار بقلم: جواد علي كسار (الطبعة السابعة)

٥- مدخل إلى الإمامة (الطبعة الخامسة)

٦- التوحيد: بحوث تحليلية في مراتبه ومعطياته (جزءان)
تقرير: جواد علي كسار (الطبعة الخامسة)

٧- عصمة الأنبياء في القرآن. تقرير: محمود نعمة الجياشي (الطبعة الخامسة)

٨- دروس في الحكمة المتعالية (صدر منه جزءان) (الطبعة الثالثة)

٩- بحوث في علم النفس الفلسفي. تقرير: الشيخ عبد الله الأسعد
(الطبعة الثالثة)

١٠- مناهج المعرفة (الطبعة الثالثة)

١١- لا ضرر ولا ضرار؛ بحث فقهي (الطبعة الثانية)

١٢- المنهج العقائدي في تفسير «الميزان» (الطبعة الثانية)

١٣- الشفاعة.. بحوث في حقيقتها وأقسامها ومعطياتها (الطبعة الثانية)

١٤- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة (الطبعة الأولى)

١٥- شرح بداية الحكمة - جزءان. تقرير: الشيخ خليل رزق (الطبعة الأولى)

١٦- في ظلال العقيدة والأخلاق (الطبعة الأولى)

١٧- التوبة: دراسة في شروطها وآثارها (الطبعة الأولى)

١٨- مفهوم الشفاعة في القرآن. تقرير: الشيخ محمد جواد الزبيدي
(الطبعة الأولى)

١٩- مناهج بحث الإمامة بين النظرية والتطبيق.
تقرير: الشيخ محمد جواد الزبيدي (الطبعة الأولى)

٢٠- التفقّه في الدين. بقلم: طلال الحسن (تحت الطبع)

٢١- الإعجاز بين النظرية والتطبيق. بقلم: محمود نعمة الجياشي
(تحت الطبع)